

كتاب

٦٦

فؤاد شاكر

ميراث الفقراء



٦٦

حكايات

رئيس التحرير أنيس منصور

فؤاد شاكر

ميراث الفقراء



دار المعارف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

نحن نعرفهم من قريب أو من بعيد . . نسمع عنهم ، ونحفظ لهم ، وقد نفتدى بهم . . وغالبا ما تكون صحبتنا لهم بعد أن أصبحوا أعلاما مشهورين . لكن ، ماذا عن البدايات الأولى : المكان . البيئة . . الأسرة . . الأهل . . الصديق ؟ ! من المرجح أن لهذه العناصر جميعها تأثيرا غلابا في النزية والتنشئة ، ثم قد يكون لها النصيب الأوفى في اختيار المسلك والتزام الطريق . . ولما كان العظم من الناس يولد عادة كما يولد أى واحد من البشر ، ثم يُنسج رداء عظمته مع نسج حياته من خيوط ستي ، فإن تتبع تلك الخيوط وفهم انتظامها ، يتيح للأباء (وللأبناء أيضاً) مزيداً من القدرة على النجاح في أداء رسالتهم كأباء وأبناء . . وَلَسْنَا بحاجة إلى أن نبحث عن نماذج من شرق، بعيد أو من غرب غريب . . فما أكثر وما أروع الشواهد والأمثلة المستقرة في خزائن تراثنا القيم المجيد ، اخترنا منها أربعة ، من أقصى المنسرق العربي ومن مغربه وجنوبه ، في عصور مختلفة . سرنا معها - بفدر ما يسع المكان - على نفس الدرب الذي ارتضيانه . . وفي ذلك تأكيد على أن نهج الإيمان واحد ، وأن الفوز فيه لمن سارع وبادر عن بصيرة ويقين ، وما ذلك على الله بعزيز : « فمن اتبع هداى ، فلا يصل ولا يشقى » ، « سورة طه » .

أم الإمام

المكان : مَرَّو عاصمة خراسان

الزمان : عام ١٦٣ هـ .

يُغَادِرُ الفائد الشاب محمد بن حنبل مدينة مرو نصحبه روجنه .
يفصدان عاصمة الخلافة بغداد ومعهما ثالث لا يرى ولا يرى . لأنه
ما زال جينا في بطن أمه « صغية بنت شيبان » .

وما إن يصلأ إلى بغداد ، حتى يرحل الفائد عن الدنيا فجاء ولم
يتجاوز من العمر الثلاثين ! ثم تضع الزوجه حملها في ربيع الأول
١٦٤ هـ (٨٧٠ م) ، ليصبح الطفل الينيم أحمد بن حنبل ، هديه
السماء إلى بغداد ، بل إلى العالم الإسلامي كله .

في مفدور الأم أن تواصل مسيرتها في الحياة هننقى من جانب
وتتزوج . . ومن حقها أن تفعل . ولو فاعل . فلا لوم عليها ولا
تؤرأب . . وهى جميلة شابه من بيت عريين من سمات بنى شيبان .
تاريخهم معروف في الحرب والسلام ، في العلم والشعر والأدب والحارة
والصناعة ، إذ لهم بين العرب مكانة وفي المكارم فوه . لكنها أثرت أن
تعيش الدنيا لطفلها ، فأثرها الطفل على كل من سواها . .
أى خاطر كان يحول في ذهن الأم ، وهى تختار هذا المصير ،

وتتصدى بكل الأمانة لتحمل تلك الرسالة في تربية الابن وتنسئته على النحو الذى كان ؟ ! لعلها حدثت نفسها في صفاء وسمو ، بما يلقى بأبناء شيبان - وجدهم الفارس القائد البطل « المتنى بن حارثه » الشيباني - فارتأت صنعها هذا نوعا من الجهاد ونحلة في معركة الإنسان مع الحياة . وقين بآل شيبان ، وهم الذين قادوا المعارك وصنعوا البطولات في البحرين واليمن وفارس والعراق ، أن يلتمسوا لأنفسهم ولذرياتهم من بعدهم ، سبل التفوق والفلاح : بمهدون لها ، ويوسعون فيها ، ويضيفون إليها ، ويقتحمون بها . والأمر في النهاية : نجاح أو فشل ، هزيمة أو انتصار ، سواء في حرب أو سلم . . فالحياة في تلافقها المتتابع ، عند البعض ، صراع يحتاج كل يوم إلى بطل . !

فإلى أى مدى كان نصيب الأرملة الشابة من هذا النجاح أو الفشل ، وهي تواجه معركتها وحدها ، في عاصمة الخلافة التي توالى عليها الحزن ، ومزقتها الصراعات ، ولوثتها سحب قاتمة من المثالب والاضطرابات ؟ لننظر ما فعلت ، حتى يستقيم الحكم ويصدق القياس . .

أول ما علّمت طفلها منذ حداثته : القرآن ، والحديث ، واللغة والأدب ، وشيئا من الفارسية التي عرفت أثناء إقامتها بمرو . وأتاحت له - وهو صغير غلام - أن يحفظ القرآن ويقرأه على كبار القراء في عصره . والأم عادة - أى أم - تحكى لطفلها القصص والأساطير ، ففيها تسلية وغذاء لخياله ، كما قد يكون فيها استجلاب يسكت الطفل من

بكاء يُنفِيه ، أو يُريح الأم من عناء يرهقها . . فأى قصص وحكايات
كانت تروىها « صفة » لابها « أحمد » ؟

ما أكثرها وأروعها : سيرة النبي -- عليه السلام -- وسير ألى بكر وعمر
وعثمان وعلى . وتفص عليه بعضاً من أخبار معاوية ، وطرفاً من مآثر
أجداده مثل ذهل بن نعلبة (الجد الأعلى للسني بن حارثة ولأحمد ابن
حنبل ويجتمع مع النبي في نزار بن معد بن عدنان) ، ومعن بن زائدة ،
الذى سماه الخليفة المنصور (أسد الرجال) ، وولاه اليمن ليخضع ثوره
نشبت فيها فأخضعها ، وكان شجاعاً جواداً كريماً ، قال فيه مروان ابن
أبى حفصة :

معن بن زائدة الذى ريدت به شرفاً على شرف بنو شيان
وترويه الأم الفاضلة أنباء الصحابة والتابعين ، والأدباء والشعراء ،
والمحاربين وأصحاب البطولات ، وتحديثه عن الخلفاء والأمراء ، وعن
الوقائع ومفاخر الرجال . . وأيضاً فضليات النساء !

أى أم معلمة هى ؟ وبأىها من مربية راشدة ! إن الثمرة تابل يقيناً على
الشجرة ، وإن الشعاع يهذى السالكين إلى مصدر الضياء . ومن غير
المألوف أو المقبول أن يهبط التفوق والنجاح فجأة . . فالسما ، كما قال
ابن الخطاب رضى الله عنه ، لا تمطر ذهباً ولا فضة . . وإنما هو إعداد
واستعداد ، وأخذ بالأسباب . وهالك قاعدة جزائية أبدية ، يفررها
القرآن الكريم فى تحديد واضح إذ يقول : « إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ

عملاً « فكل أم - وكل أب كذلك - نريد لابنها أو لابنتها النجاح والفلاح ولكس : كم سعد أبناء آباء ، مثلاً شقى آباء بأبناء . . وأغلب الظن أن سر النجاح أو الفضل يبدأ من هنا : عند ظلال الأب أو الأم ، أو كليهما معاً : قدوده وفدرة وفهم وعطاء . . إذ « ليس الإيمان بالتمنى ، ولكن ما وقر في القلب ، وصدقه العمل » .

حسب الغلام هذا « البت » الذي يُصنع فيه ويتكون وينمو ، بتوجيه تلك الأم الواعية الفادرة الأمانة . حسبه ما ينغذى به من قرآن وحديث وسير وبطولات تحكى . حسبه ما يتشربه من معارف وقيم وشيائل وأخلاقيات ، يتمثلها في غدو ورواح ، ويديرها في رأسه أو يحدّث بها نفسه ، فتصقل وتشع حتى قبل أن يبلغ سن الرجال . . فقالوا عنه : « إنه الغلام التقي بين العلماء ، والشاب النقي بين الشباب » . . وماذا نتوقع من علام يدرج نحو الصبا والشباب ، تحوطه تلك الرعاية ، وتعلمه وتربيته مثل هذه الأم ، ويقتدى في تصرفاته وساوكة بما استحفظ ووعى ، سواء من البيت أو المسجد ، أو من أهل العلم والفضل ؟ يقول الرواة : لقد كان جداد بين الصبيان حيث يهزلون ويلهون ويلعبون . وقد أكسبه اليتيم جِداً وقوة احتمال ورغبة في العمل . وكان الآباء يلاحظون ذلك عليه ، ويريدون أن يكون أبناءهم على مثاله . .

فلما بلغ السادسة عشره ، بدا واضحاً أن « نجماً » يبرز في أفق مكين ، ويتخذ مداراً في سماء العلم الجاد الرصين . نراه يزداد حبا للعلم ،

وتعلقا بحلقات الدرس . . والأم المتصلة بالله ، الواثقة من انتصارها
بصلاح ابنها وصلاحه تدفعه برفق نحو مسالك العلم ودروب العلماء .
وتوصيه بالاعتدال ، إذ كان يتعجل الذهاب إلى مجلس شيخه قبل طلوع
الصجر !

ويشهد له العلماء الذين اتصل بهم وهو صغير ، بما قاله فيه « الهيثم بن
جميل » : « إن عاش هذا الفتى ، فسيكون حجة أهل زمانه » !
في المقابل ، كان الفتى يعامل أمه بالحب القائم على الاحترام
والطاعة ، كدليل على الوفاء والاعتراف بالفضل . وظل طوال عمره --
إلى أن كبر وأصبح شيخاً جليلاً مهاباً - يذكرها شاكرًا بما يؤكد هذا
المعنى . ويكفي أن نشبر إلى أنه في شبابه ، حيث يكون الاندفاع ومزلق
الحدة والحماس المفرط ، دعاه صديق له أن يعبراً نهر دجلة ليلحقا
بالمسرعين إلى مجلس عالم الرى الشهير « جرير بن عبد الحميد » وقد قديم
رائراً لبغداد ، فامتنع أحمد عن صحبتته برعم حبه الشديد للعلم
ومجالس العلماء -- واعتذر قائلاً : إن أمي لا تدعنى أى لا تأذن له
بذلك ، مخافة النهر الذى كان فى فيضان شديد . فهو يؤثر رضاها ولو كان
مخالفا لما يهوى ويرغب . وانطلاقاً من هذا الحب لأمه ، ولكل أم صالحة
صابرة مكافحة . سزاه وهو شيخ وقور ، تفيض عيناه من الدمع حزناً ،
كلما تذكر الإمام أبا حنيفة الذى قال فى معرض قصته حين سجن وضرب
لكى يرضى بولاية القضاء فى عهد بنى أمية : « كان غمُّ والدتي علىَّ أشدَّ

من الضرب » فيتنى عليه أحمد بن حنبل ، ويدعو له وهو يكي .
وهما ، عند هذه المرحلة من حياة الإمام أحمد بن حنبل ، يحس أن
توقف قليلا ، ثم نستدير برفق وأناة إلى الوراء ، مع النابيين من الآباء
والأمهات ، لنراجع معا هذا الأسلوب في الإعداد وتربية الأبناء .
فليس كل بنهم بالضرورة مهيا للصبر والجلد واحتمال المكاره . وليس كل
صبى (أو فتاة) مطلوبعا على احترام الوالدين . أحدهما أو كليهما - وفاء
بما قاما وصنعا . وليس كل أرملته شاة ملزمة بالانقطاع لزربية أبنائها تجنى
بهم سعادة وتحصد ثمار نجاح . فالإنسان في واقع الأمر مخلوق شديد
التعقيد ، متشابك المواضع والدوافع والعلاقات . وهناك عوامل كثيرة
متداخلة تشترك حقا في صباغته وتكوينه . لكل التاريخ يعلمنا ، وسير
الصالحين المصلحين تؤكد لنا ، أن ضمانات النجاح في إعداد الأبناء
تزداد كلما زاد وعى الآباء ، كلما زادت قدرتهم على العطاء (وأحيانا
المنع) ، والعطاء السليم ، وبالفدر المناسب ، وفي التوقيت
الصحيح . وهو علم وفن معا ، أى معرفة وأسلوب ، الجميل فيه
والغريب : إنه علم يتجدد في كل أسرة ودخل كل بيت ، لسبب
جوهرى ، هو أن كل طفل - إنسان - هو نسيج فريد في ذاته ، وعمودج
لا يتكرر . والأسرة قلت عددا أو كثرت ، لا تتشابه في ظروفها وعلاقاتها
وخصائصها مع أسرة أخرى غيرها - وتلك حكمة وإبداع معجز للخالق
سبحانه ومن هنا يدمثل الآباء التجربة ، جديدة في كل مرة . أو

هكذا تبدأ حتى يأتي الجزاء بقدر الصدق في العطاء فكلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته ، وحتى يظل القباس بنفس المقياس . « إنا لا نضيع أحر من أحسن عملا » .

ربما لانتحاور الصواب إذا قلنا إن هذا الأسلوب في التربية ، وهذا النمط في النسبة حري به أن يسلك بالصبي والشاب مسالك الصلاح والفلاح أينما اتجهوا . وحبما كانوا . ولقد من الله على الفتي وأمه فاتجه به نحو طريق العلم الوافر النافع العسير المثال : علم الدين والتفقه فيه . فالله تعالى يقول : « ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا » ويقول : « ومن يتق الله يجعل له مخرجا . ويرزقه من حيث لا يحتسب » . وقد يسر له الأمر ، وخرج أحمد بن حنبل على الدنيا برزق وافر من علوم الدين ، خاصة علم الحديث ، تفوق فيه وتفقه . واستنبط منه الأحكام ، وأحكم القياس . .

وطالب الحديث في عصره وفي كل عصر لابد وأن تتوفر فيه صفات منها : التقوى ، والإجادة ، والصبر ، والجلد . وهذا كله عرف أحمد واشتهر بن أقرانه وعارفيه ، وهي النتائج المنطقية لشأه عرفنا جانباً منها ، ولتربية أشرنا إلى بعض الفضل فيها . وهذه الصفات التي اكتسبها وعرف بها ، رحل وهو في سن العشرين وتنفل بين المدن والأمصار من بغداد إلى الكوفة ثم البصرة والحجاز واليمن ، يحتمل المشاق ويصبر على المكارة ، تماماً كما يفعل أولو العزم وكرام المجاهدين في سبيل الله . . كل

ذلك سعيًا إلى رواة الحديث وتقاة العلماء ، يلتقي بهم ، ويستمع إليهم ،
ويأخذ عنهم في عمّة وقناعة وزهد لراما وأن تكون من شيمته ،
لدرجة أنه أقام سنتين في صنعاء ، إقامة ختنة وفي فافة لا يرتضيها أو
يحملها كثيرون ، لكنه احتمل راضيا ، واحتسب راجيا ، ورفض متأدبا
أن يمهّد بمال معلمه المحدث الشيخ عبد الرازق المشهور يومها بصعاء ،
اكتفاء بمدد الله من عطاء العلم ونور المعرفة . . فكان يؤجّر نفسه للحمل
إذا انقطع به السبيل ، أو ينسخ بالأجر ، أو يجمع بقايا الزرع الذي يترك
في الأرض مُباحاً ، ولا يترك عملاً منها كان بسيطاً طالما كان شريفاً يغنيه
عن دنيا الناس . . وبالييت المنكين على الدنيا والمتباكين عليها بدموع
الدين - في كل عصر - يفهمون أو يعقلون ! !

ولعل هذه الصفة البارزة من كريم صفاته ، « الصبر الجميل » إماما
تعلّمها وراض نفسه عليها حتى اعتادها نقلا عن أمه الصابرة المحتسبة .
وترتب على ذلك كما قيل عنه سباحة وفورة . وتواضع مهّاب : . ألم
بمتنع عن الجلوس في مجلس الأستاذ المعلم قائلا : لا أحدث وبعض
شيؤي حتى ؟ ! وبالفعل ، يذكر الرواة أنه لم يجلس للدرس والإفتاء في
بغداد إلا بعد أن بلغ سن الأربعين وبعد أن مات الإمام الشافعي
بمصر !

وعن مجلسه ، يحدثنا واحد من أصحابه - المروزي - فيقول : « لم أر
الفقير في مجلس أعز منه في مجلس أبي عبد الله (أحمد بن حنبل) ، كان

١٣

مائلا إليهم ، مُقَصِّرا عن أهل الدنيا ، ولم يكن بالعَجُول ، بل كان كثير
التواضع ، تعلوه السكينة والوقار . إذا جلس مجلسه بعد العصر ، لا يتكلم
حتى يُسأل . . . »

رحم الله الإمام الشيخ . . !

وأجزل عطاء أم الشيخ الإمام : أحمد بن حنبل !

شمس العلماء

بين الحين والحين ، يطلع علينا رجال التربية - ونساؤها ! - بأفكار وتصورات عن أساليب واتجاهات يرؤن - في زعمهم - أنها جديدة ، وأصيلة ، ويجهدون أنفسهم في صياغتها نظرات أو نظريات للمربين والمُعَلِّمين . ولعل آخر ما بلغنا من الغرب البعيد ، انحاء يدعو إلى الربط بين البيت والمدرسة ، وبين المدرسة وتحصيات في المجتمع . كالحامى والطبيب ورجل الشرطة والمصور ومذيع التلفزيون . . إلخ ، على اعتبار أن الطفل يتلقى من كل هؤلاء ويلتقى بهم ، ويأخذ عنهم من قريب أو بعيد فكلهم يشارك في تعليمه وتوجيهه وتربيته وثقافته . .
وكأنما لا جديد تحت الشمس . .

فهذا الغلام من « سيالكوت » في كشمير . يعود بهذا الأسلوب في التربية والتنشئة إلى مائة عام أو يزيد . . وبالتحديد إلى عام ١٨٧٧ . في التاسع من نوفمبر ، وفي شارع ضيق عتيق . يسمى « شارع صباع الخوامم » ، قام الشيخ « نور محمد » يتوضأ كعادته لصلاة الليل . لكنه أدخل على صلواته في تلك الليلة أمراً جديداً : إذ بدأ بصلاة ركعتين شكراً لله تعالى ، أن مَنَّ عليه بطفلٍ حديد سماه « محمداً . . » في هذا الشارع القديم ، وداحل داك البيت المتواضع ، وتحت ملائ

ذلك الوالد الشيخ التقى الرحيم ، يساً « محمد إقبال » وبتزود بزاد أنمر كلّه
أوبعضه ، أسبهم في صنع داعية إنساني من دعاة الحق ، وفيلسوف يشع
بفكره أنوار الحكمة ، وساعر يخلق بكلماته المباركة في آفاق الخير المصطفى ،

ثم يسفطها برذا وسلاما فوق نوارع النفس ولسب دنيا الناس !

لأن كان الفقر - المفروض فرضاً - باباً قد يُفصّل إلى سوءات وشرور
(استعاذ منها النبي ﷺ بدعائه المأثور : « اللهم إني أعوذ بك من الكفر
والفقر . ») ، فإن بيت هذه الأسرة كان بمنأى عن كثير من آثام الفقر
القاهر المذل ، الذي ساد السوارع ، بل الحى مأكمله ، وربما الهند
جميعها ، حيث كانت في قبضة استعمار مهلك مقيت . فقد تعلم الفتى
« إقبال » ، وهو يطل من بيت أبيه على السوارع ومن فيه ، كيف يتعامل
مع الفقر والفقراء . . يذكر إقبال تلك الواقعة :

« طرق بابنا يوماً فجأة سائل قبيح الصوت ، وراح يهز الباب في
عنف ، واستفزني صياحه وإلحافه ، فخرجت إليه بعصا هويت بها على
رأسه ، فأطاحت الفسربة بما لحمل من فئات جسمه طوال يومه . . لكنني
فزعت إذ رأيت والدي وقد شاهد ما فعلتُ والدموع تنحدر بغزارة
على وجهه المستقع في صفرة شاحبة وهو يقول لي في أسى : تذكر يا بني
جلال المسحّر ، يوم تجتمع أمة خير البشر ! ألا ترى لحيني البيضاء
وجسمي الناحل المرتعش بين الخوف والرجاء ؟ أريدك يا بني زهرة في
عصن « المصطفى » حبيب الفقراء . . !

ياله من درس كبير !

ولابن عطاء الله السكندري - الحكيم الزاهد - قول مأثور جاء فيه « رب معصية أورثت ذلاً وانكسارا ، حير من طاعة أثمرت عزاً واستكباراً » . . وهذا ما وقع لصاحبنا الفتى « إقبال » . . فقد تعلم كيف يحب الفقراء : كيف ولماذا هم فقراء . ؟ ثم أدرك عن يقين ، كيف يرتضى لنفسه - مهما أقبلت الدنيا وأعطت - فَقَرَّ الزَاهِدِ الْعَابِدِ ، الْغَنَى النفس ، العازف بإرادته عن متاع الدنيا وزخرفها .

حينما زرنا في العام الماضي بيت إقبال ، في مدينة لاهور بباكستان ، أدخلنا ابنه « د . جاويد » قاضي المحكمة العليا ، الحجرة الصغيرة التي عاش فيها والده العظيم ، وهي على يمين الداخل مباشرة من بهو المدخل . ذكر لنا أن الحجرة باقية على حالها تماما كما كانت ، فيها سرير بسيط صغير ، ومقعد متواضع ، وبساط كالح من نوع رخيص الثمن . وقال إن والده لم يَكُنْ يستعمل من البيت الواسع الكبير إلا تلك الحجرة وحدها طوال السنين السبع عشرة التي عاشها فيه ، لم يدخل حجرة سواها قط ! وكثيرا ما كان يجلس وسطها على الأرض ، وفيها استقبال زواره ومنهم الأدباء والزعماء والقادة ، خاصة في فترة مرضه الأخير ، ! وهذا يتوافق تماما مع فكر إقبال الذي نلتهمسه فيما كتب :

لا يعلم الإنسان كيف أتى إلى دنيا المتاعب أو متى يترحلُ
ما نحن في الأكوان غير حديقة أزهارها عما قليل تذبل

يأبها الحَرَصُ اِنَّك في الدنيا دماً دنياك ليس بها لحيٌّ منزل
بتوفيق من الله ، ألقى الشيخ « نور محمد » في نفس ابنه « محمد
إقبال » تلك الجنة المباركة التي تنبت سبع سنابل في كل سنبله مائة حبة .
والله يضاعف لمن يناء ! إن كلمة الوالد الشيخ ؛ لابنه عن الفقر
والفقراء ، كانت بمثابة الشجرة الطيبة ، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها .
ولقد عاش « محمد إقبال » طوال حياته يعطى من فكره وسعيه وفلسفته
وشعره من أجل الفقراء ، والضعفاء ، والمغلوبين على أمرهم ،
والحرومين ، والحيارى ، والمعذنين في الأرض . وهو عطاء يؤتى في كل
حين ، لا ينضب مع توالى السنين . إنه يهزهم هزاً ، ويدعهم دعاً ،
حتى يستفيق الغافل ويستيفظ البائم :

الأرض لا تخفى حقيقة جوهرى أنا مقصدُ التقدير في الأكوان
وحقيقى نورٌ فما لى ساجحاً فى لجة الظلمات والأشجان
فاخلق لروحك من زئيرك نشوةً فى المجد ترهب فى العرين أسوداً
واجعل نشيدك قول ربك « لا تخف » حتى بهاب البرق منك رعوداً

وما هو الفقر ؟ !

أى فقر نرتضيه ؟ وأى فقر يُخجل ؟ .

بعد رحلة فى الزمان والمكان ، من « سيالكوت » عام ١٨٧٧ إلى

لاهور ١٩٣٨ يكون حصاد الفكر والتأمل والتجربة :

فقرنا ليس بركصٍ أو غناء ليس سُكْرُ النَّفْسِ فى موتِ الرجاء

فقرنا مَعْنَاهُ تَيْسَبُرُ الْجُهْدُ فقرنا مَعْنَاهُ تَسْخِيرُ الْوُجُودِ
فقرنا الْعَادَى سَرَّاجٌ لَوْ ظَهَرَ يُخْجِلُ الشَّمْسُ وَيُزْرِى الْقَمَرُ
إِنَّهُ إِيْمَانٌ بِدَرْ وَحْنَيْنِ إِنَّهُ زَلْزَالٌ تَكْبِيرُ الْحُسَيْنِ
هو فطر الأنبياء والرسل ، وهم الصفوة المختارة من كل البشر ، حملة
الرسالة ، ونور الهداية ، وهذا إمامهم وخاتمهم محمد عليه الصلاة وعليهم
السلام :

فَإِذَا كَانَ مَجْلِسُهُ ؟ صَفَاءٌ ، وَالْبَسَاطُ حَصِيرٌ
وَمَاذَا كَانَ مَطْعَمُهُ ؟ رَعِيفٌ مِنْ دَقِيقٍ شَعِيرٌ
وَمَاذَا كَانَ مَلْبَسُهُ ؟ قَمَاشٌ ، لَمْ يَكُنْ بِخَرِيرٍ
غَنِيٌّ عَنْ جَمِيعِ الْخَلْقِ لَكِنْ ، لِلَّهِ فَقِيرٌ

إِنَّهُ فَقَرُ الْإِنْسَانِ إِلَى خَالِقِهِ . . أَمَا عَدَدُ النَّاسِ ، فَهُوَ الْغَنَى مَهْمَا فَلَّ مَا
يَمْلِكُ أَوْ كَثُرَ . . وَلَكِي يَكُونُ غَنَى النَّفْسِ . عَالِيَّ الْيَدِ ، لَا بَدَّ وَأَنْ يَعْمَلَ
وَأَنْ يَسْعَى وَأَنْ يُنْتَجَعَ ، يَجِبُ أَنْ يَكُونَ لِلْمُسْلِمِينَ نَفْلَامٌ اقْتِصَادِيٌّ مُتَحَرِّرٌ
مِنْ ضَغُوطِ السَّيْطَرَةِ الْأَجْنِبِيَّةِ الْمُؤْتَمِرَةِ بِهِمْ . . هَذَا وَاجِبٌ لَا بَدَّ وَأَنْ يَسْعَى
الْمُؤْمِنُ إِلَى تَحْقِيقِهِ ، وَاجْتِمَاعِ كُلِّهِ يُوَازِرُهُ ، وَإِلَّا فَلَا خَيْرَ فِي إِيْمَانٍ يُفْضِي إِلَى
الْمَذَلَّةِ وَالْهَوَانِ :

الْمُؤْمِنُ الْمَقْدَامُ يَمْضِي قَاهِرًا فِي عِزَّةِ الْأَفْدَامِ دُونَ تَوَالِي
وَإِذَا ارْتَضَى لِلذَّلِّ أَمْسَى كَافِرًا بِاللَّهِ أَوْ بِكَرَامَةِ الْإِنْسَانِ
لَا يَرْكُ الدُّنْيَا تَعِيشَ وَشَعْبُهُ فِيهَا قَتِيلٌ الذَّلُّ وَالْحَرَمَانُ

من شاب في نسج الحصر فأله يوماً إلى نسج الحرير يدان
والذئب يأكل يوسفًا خيرا له من أن يُباع للتاجر العبدان
واقبال ، ابن التاجر الشيخ ، الذي يقوم الليل كله أو بعضه راکعاً
ساجداً مُسَبِّحاً ، متلماً ينشط في نهاره على رزقه ساعياً مفبلاً ، يتعلم منذ
الطفولة الباكرة ، أن القناعة تأتي من القدرة ، وأن الزهد يكون لمن
يملك ، فما فضل العاجز المحروم في رَفْضِ أو إِبَاءِ ؟ يقول إقبال :
أيها الناصح ليلاً ونهاراً داعياً أن نترك الدنيا احتقاراً
إن معنى تركها تسخيرها في سبيل الخير لا تدميرها
لم يكن هذا هو الدرس الوحيد الذي تعلمه إقبال من أبيه التاجر
التي . . بل هناك ما هو أعظم وأجل ! يحكى لنا إقبال ، أن والده كان
يوقظه في صباه لصلاة الصبح ، ويقول له : « يا بني قم إلى الصلاه .
ثم اقرأ القرآن كأنه أنزل عليك ! » فينهض الغلام يصلي خلف أبيه
ويجلس لتلاوة القرآن .

أيّ قائدٍ قُدوة ذلك الأب الشيخ ! ؟ لم يكن من علماء الدين ، بل
كان تاجراً بسيطاً متديناً ، أي كان عابداً ورعاً ، يتعامل أولاً مع الله فبل
أن يتعامل في تجارته مع الناس . . لا يتجر في دينه ، بل يُرى تجارته
بأخلاق دينه . . ورجل هذا شأنه ، وتلك توجيهاته لابنه ، لاسك في
أنه مُرَبٌّ فاضل ، وراع أمين ، ورَبُّ أسرهِ برّ رحيم . مرة أخرى إذن .
تَوَقَّى الشجرة الطيبة أَكُلَهَا ياذن ربها ، إذ يعترف إقبال فيقول : « منذ أن

دعاني أبي إلى قراءة القرآن الكريم ، بدأت أتفهم القرآن وأقبل عليه ، فكان من ألواره ما اقتبستُ ، ومن بحره ما نظمت . « ! !
وأين الأم داخل هذا البيت ؟ !

السيدة « إمام بيبي » ، تكاد أن تكون أُمِّيَّة لا تُحسن قراءة ولا تجيد كتابة . يبدو على ملامحها الطيبة والسماحة . يشهد لها الجيران وأهل الحي بالفضيلة والتواضع وحسن الخلق . وإنَّ ما يصفونها به أنها : محسنة كثيرة العطاء . فأحبها الناس حب تقدير وإجلال ، وأحبها أبناءها حب إعزاز وفخار . . توفيت عام ١٩١٤ قبل وفاة والده بستة عشر عاما . لكنها رحلت - كما قال إقبال فيما بعد - بعد أن ظلت المدرسة الأولى للعقل الوليد ، والحارس اليقظ على ثغور الحياة ، ترعى بالحب ، وتوجه في وعي ، لم تنتزع ثقافة العصر من قلبها مشاعر الفطرة الإنسانية الصافية ، ولم تقتلع مبادئ الدين وخلقه القويم . . وربما من هنا ؛ بفضل هذه الأم الطيبة الصالحة ، استقر في نفس إقبال وفكره إلى نهاية عمره ، مبدأ الثبات على قيم دينه وتراث مجتمعه مهما تنقل وارتقى في مدارج التعليم الغربي وحصل على مراتب وشهادات . بل نراه ينصح الشباب بالحرص من مزالق الضياع في تيار الثقافات الغربية الوافدة ، بعضها برأف ولكنه خادع ، وبعضها جذّاب غير أنه مدمر :

هي المدنيّة الحمقاء ألقت بهم حول المذاهب حائرنا
لقد صنّعت لهم صنم الملاحى لتعجب عنهم الحرم الأسي

وكم فتى تَمَادَى الغرب فيها وأحكم حولها السحر المييا
فَمَا أَنْقَى عَلَى الكفار كَفَرَا ولا أبقى لأهل الدين دينا

وما برح الغرب يَخْتَالُ تِهَا ويخترِف الكَيْدَ للعالمين
لينشر في الكون إلحاده ويُنشئ دينا على غير دين

» «

أرى مدنيّة الغرب استفاضت بفعل الرأسمالين سَحْرَا
رياءً خادعٌ وبريقٌ زيفي سيُكشَفُ عنه يديم الفصل سَتْرَا
وفي بيت الأسرة شقيق : « عطاء » . أوكما كانوا ينادونه : الشيخ
« عطاء محمود » . يكبر إقبالاً ثمانية عشر عاماً ، فاروق إذن في السن
كبير ، أزال حاجز المنافسة والضعينة التي قد بنتاً سادة بين الإبحوة
المتقارئين في السن حين يشبون في غفلة من رساية الآباء الممسين .
إن الشيخ « عطاء » - وهو نُبِتُ في حاديقة تلك الأسرة الماسية .
يصبح بمثابة أب ثان لإقبال الصغير : يخنوع عليه ، وينصيح له ، يستمبله
إلى القراءة ومطالعة الكتب ، وإقبال شيئاً فشيئاً يغترف من هذا الهر نهر
المعرفة - حتى أصبح وأمسى حبه وهواه ، يسبح فيه ويغوص ، إلى أن
زاد فيه بَقِيضُ عذب سائغ للشاريين . .

والأخ - الحاني الصديق - مهندس محترف منظم الفكر . يجمع بين
علوم الدنيا وشيء من علوم الدين ، بين ثقافة العصر وميراث الأسرة من

قِيمِ تطبِعُ النفس على الخلق القويم . فلن غاب الأب الصالح عن البيت
لبعض شأنه وتجارته ، فها هي الأم عاكفة في دوحتها لا تبرح ؛ ولن
غفلت الأم الفاضلة لشواغل تتنازعها . فها هو الأخ الودود لا يضيق
صدره ، وجهه لأخيه لا يفت . وتلك روافد السعادة الحقة بين جدران
بيت . رضى الله عنه ، فغشيت السكينة ، وغمرته المودة والرحمة ، فيظل
« إقبال » طوال عمره بعد ذلك يدعو إلى الإخاء ، وينادى بالحب ،
ويردد عن تجربة ويقين :

لم أَلَقَ في هذا الوجود سعادةً كمودّة الإنسان للإنسان
ثم ينصح في حكمة تضرب يحدورها إلى ما تعلمه ودرسه ومارسه في
بيت الأسرة :

أرى الأطماعَ فَرَّقَتْ البرايا	إلى شيع كقطعان البراري
يَمَزُقُ بعضُهُم في الحرص بعضا	وكلهم لكلهم أعادي
تعصب بعضهم للون جهلاً	وللإقليم والدم والقبيل
بما نشر البلايا في البرايا	وعم الخلق جيلاً بعد جيل
فجدد للتقارب والتأخي	نداء يملأ الدنيا صداه
وقل ما قال سلمان وكرّر	أبي الإسلام لا أب لي سواء
أعذ يا طائر الحرم المفدى	نشيد الحب للأقوام طرا
وحلّق في فضاء الكون واجعل	جناحك من غبار اللون حرا
والإخاء والحب الإنساني عند إقبال ليس قيمة أخلاقية وحسب ،	

بل هو وسيلة ومنهاج حياة :

في « رساله الخلود » - جاويد نامه - يكتب « إقبال » على لسان
الحلاج إجماعاً عن سؤال . كيف يمكن تنفيذ الفانوس الإلهي في الدنيا ؟
أى كيف ندعو إلى الدين القيم ؟ يقول . « غرس صورة الحق في العالم
إمماً بقوة المحبة وإماماً بقوة القهر . وحيث إن الله أكثر المهورا في المحبة ، فإن
المحبة أولى من القهر . فالتة يقول في سورة النحل (ادع إلى سبيل ربك
بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتي هي أحسن ، إن ربك هو أعلم
بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين) . فطريق المحبة في الدعوة
أفضل من طريق القهر . »

تستقيم حياة الصبي إذن - في دواء هذا البيت - وتنضبط الساعة
الداخلية في نفسه وفكره ووجدانه ، بضوابط محكمة . يكتسب يوماً بعد
يوم ، أهما ترفعه بين أفراد الأسرة وعند الناس مكانة ، وتزبده قدراً . من
مكونات تلك الساعة المحكمة وأجزائها المحكمة : الحب ، والطاعة ،
وضبط النفس .

وقل أن يخطوا « إقبال » أولى خطواته خارج البيت إلى الطريق
اللانهاي : طريق الحياة والناس ، يكون قد تعلم وترى على صفات
لاشك في أنها تلك أجزاء من بائه ، وتردد صداها في بعض فكره فهو
مثلاً بحديث عن مراحل تربية الذات في « ديوان أسرار الذاتية »
مبتول :

« . . والذاتية هي باطن الحياة . وهي تحيط الكائنات ، خلفها الأزل ، وأمامها الأمل ، لاحدّ لها عنّ يمين أو يسار . . فلا تغفل أيها الانسان عن ذاتيتك ، وكن حارس نفسك ، لألك فد خلقت لتكون ضياء الطريق ونبراس الحرم . . لا تكن أفل احتمالا للطاعات ، ولا تمل المسير في حمل أعباء فرائض ربك . حتى نجني الثمار » والله عنده حسن المآب » «سورة آل عمران» جد في الطاعة ، واحذر الغفلة ، حتى يصير الجبر فيها اختيارا . إن الفرائض إذا دفعت إليها بواعث المحبة والإرادة ، كان صعبها يسيرا ، وكان أعظمها ثقلا ؛ أحبها إلى النفس ، تستمره نفس المؤمن كشمرة طيبة شهية ، لأن المحبة هي الدافعة ، وعندئذ ، يجد الإنسان نفسه عند تأدية الواجب لا يبالى بالأحداث . .

إن أهون إسان مكاناً في الدنيا ، تعلو قيمته ويسمو قدره بالطاعة . أما ذو المكانة المختال المتكبر ، فإنه يهوى من الثريا إلى الثرى إذا غفل عن الطاعة وترك الامتثال . فالطاعة ترفع الوضع ، والمعصية تذل الرفيع . . ومن يلتزم حدود الطاعة ويقيد نفسه برباطها ، يمكنه يوما أن يسخر الشمس والقمر والنجوم . . فبالطاعة ، قام نظام السموات والأرض وما بينهما حين قال الله تعالى في سورة فصلت (ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها ، قالتا : أيننا طائعين) . . »
وحين يتناول إقبال ضبط النفس كمرحلة من مراحل التربية - تربية الذات - نسمعه يقول :

« خذ زمام نفسك بيدك ، لأن الذى لا يملك القدرة على حكم نفسه يكون أقرب استعدادا لتمليكها للغير واخضاعها لحكم الآخرين . . إن الذى يعتز بالحق اعتزاز الجسم بالروح ، لا يخضع جبينه للباطل أبدا ، مهما اشتد سلطان هذا الباطل . والمؤمن لا يستشعر الخوف إلا من الله . ومن يعش فى حديقة (لا إله إلا الله) يتحرر من كل قيد ، وكل هوًى ، حتى يصير رضا الله أحب إليه من كل شيء . ولقد كان الخليل بصدد أن يذبح ولده إسماعيل لولا أن فداه الله . يُغمض المؤمن العين عما سوى الله ، حتى لتراه فى سبيل طاعة ربه يضع السكين على حلقوم ولده (انظر ماذا ترى ؟ قال : يا أبت افعل ما تؤمر) . . إيمان ووفاء ، وطاعة وفداء . . فانقلب العزاء فرحا ، والمأتم عيدا . . وتبقى ذكرى الطاعة ، وضبط النفس ، والإيمان والفداية أبد الدهر ، عماد التربية الذاتية التى لا تعرف الخوف ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . . » .

هذا بعض ميراث البيت ، وقبس من تنشئة الأسرة ، حملة « إقبال » معه طوال مسيرته حلالا طيبا ، وكأنه زاد المسافر - وخير الزاد التقوى - أو هو « رأس المال » المبارك بين يدي التاجر الأريب الصالح ، يعمل له ويتعامل به ، فى أمانة وجد وذكاء ، فيروى بفضل الله ويزيد ، والله يرزق من يشاء بغير حساب . . !

من البيت ، المدرسة الأولى للطفل - - أو هكذا يجب أن يكون - - يتجه « محمد إقبال » إلى أولى مراحل التعليم فى مدرسة . والمدرسة هنا -

كما أراد له أبوه -- داخل مسجده « حسام الدين » والمعلم . مولانا « مير حسن » ، الذي كان صديقا لوالده فأحفظه القرآن الكريم . ولم يكن الغلام بعيداً عن القرآن ، ولا القرآن غرباً عنه . لكن هذا الأستاذ المعلم ، حسب إليه فهم القرآن وريته في قلبه بقدر ما يحتمل ذهن المعلم ونسوعب مداركه . فكأنما أمسك بيده وفاده في رفق إلى شاطئ البحر المحيط ، وتركه بعد ذلك لفارده ونصبه كلما ظمئ شرب ، وحثا استطاع روى الآخرين ، إنه شاطئ الحياة والنجاح معا . وفيها بعد ، ببادي الظماء واللاهتين فنبول .

ألا قل لمن أمسى وأصبح خاملاً أسيراً لريف الخادعين ، وما يدرى
أما لك في القرآن بحث إلى العلا وفقه من التفوى وهادٍ إلى النصر
حياتك في القرآن لو قد عقلتها لعشت سعبدا بالحياة مدى العمر

فالقرآن دعاء المؤمن، ودعوته وجهاده وسعيه :

أيها الشاذي بقرآن كريم وهو في ركن من البيت مفهم
قم وأبلغ نوره للعالمين قم وأسمعه البرايا أحسن
إن تكن في مثل نيران الخليل أسمع النورود نوحيد الجليل
من له من نورة الهادي نصيب فهو من جبريل في الدنيا قريب
يا غربيا عن مقام المصطفى عُدْ إلى الحق ، تجد نور الصفا

لم ينس « إقبال » أبداً لشيخه المعلم هذا الفضل . .

في عام ١٩٢٣ ، أراد حاكم البجواب سير « ادوارد ماكلاجان » أن

يمنح « إقبال » لقب « شمس العلماء » وهو لقب علمي أدبي كبير ، لكن « إقبالا » اعتذر في أدب وحياء ، راجيا أن يُعطى هذا التقدير لمعلمه الشيخ « مير حسن » فهو أحق به منه ، واعتراضاً بفضلته عليه في مدرسة المسجد . . وقد تم له ما أراد ، ومنح « إقبال » أيضاً نفس اللقب ! بين المدرسة الأولى في حياة إقبال ، والمدرسة الثانية - أي بين بيت الأسرة ومدرسة المسجد - رحلة قصيرة لا تبعد في المكان ، ولا تمتد كثيراً في الزمان . . ولكنها مسيرة وضّاء مشرقة ، قادت به إلى معرفة نفسه ، ومعرفة ربه :

أنا أعجميُّ الدِّنُّ لكن خمركى صنّع الحجازِ وكرّمها القَيْنان
إن كان لي نغمُ الهنود ولحنهم لكنّ هذا الصوتُ من عدنان

في حُجُور النساء شيخ !

نخالق الإنسان صعبا !

حقنفسه يقررها خالق الإنسان والأكوان !

ومن هنا ، قد يطمح الإنسان الى القوة ، أو يرهب القوة ، أو يخترم
القوة . ولولا ذلك . ما عمر أرضنا ولا حلق في سماء . وما أقام
حصاره . ولا جمل فيها بمثل هذا الثراء . .

ومن هنا أيضا . يتفاضل الناس ويتمايرون . ثم هم يتفاوتون طموحا
وعزما . من هاطع الحجر في بطن الجبل . إلى صانع الإمبراطوريات
وفاهر الشعوب !

غير أن الناس يختلفون في وصف وتقدير القوة ، بقدر ما يختلفون
إدراكا ومراحا وفيها لحقائق الأمور . . والشئ الواحد كالأسان
الواحد قد يكون متعدد الجواب متراكم الأبعاد . فيصعب الحكم له
أه تملكه . بصعبا أو حيلة : فقوة الشمس في حجمها مثلا ؟ أو في
مادنها وفي صفتها . أه في تفاعلاتها وفي مدارها . أو في تحكمها
وجادتها ؟ أه في كل هذه حبيبا ؟ وفيسة حمالها في شروقها أم عند
عروبها ؟ في مظهرها الدافئ يوم الصقيع أو عند اختفائها المرتقب في
صيف حرور ؟ . . هذا بالسسة لشئ يبدو واضحا للجميع ، ومطلأ

كل صباح على الجميع . .

فما بالنا إذن لو تناولنا إنسانا من البشر ، هو في ذاته وبذاته كيان غامض محير ، ما يعرف عنه أقل مما يحفل وما يبدو فيه أيسر مما يخفى ، فضلا عن نظرة كل شخص نحوه ميلاً إليه أو بغضاً وحسداً له ؟ . . ومهما وضع الناس من قواعد ومقاييس ومعايير للحكم على الأشخاص والأشياء ، تظل هي نفسها بحاجة أبداً إلى الإحكام والضبط ، تنقلاً من مكان إلى مكان . ومن جيل إلى جيل . ومن عصر إلى عصر . . والسبب بسيط : لأنها من صنع الإنسان ، الذي خلق ضعيفاً . . !

وحين تجيء رسالات السماء هداية للناس وتبصرة ، تضع الموازين القسط لكل من فكّر وقدر ، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ! . . فنن مقاييس الحكماء الخبير : « يرفع الله الذين آمنوا منكم ، والذين أوتوا العلم درجات » . فالإيمان والعلم إذن من أصدق المقاييس في الحكم على الناس والتفضيل بينهم . ولعل رسالة الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - لا تخرج في أهدافها ومراميها عن : تعليم الناس ، وهدايتهم إلى الإيمان . . فهذا إبراهيم - أبو الأنبياء - في سورة البقرة يدعوه ربه « ربنا واجعلنا مسلمين لك ، ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا ، وتب علينا ، إنك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولا منهم ، يتلو عليهم آياتك ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، ويزكيهم ، إنك أنت العزيز الحكيم » ثم يتبع الخالق سبحانه

ذلك مباشرة تحذيراً واضحاً لمن يرفض هذا المنهج والقياس ، منهج الإيمان والعلم (الحكمة) فهو ظالم لنفسه جِدُّ جَهول ، فيقول : « ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه . . »

وقصة هذا الفتى المدلل ، الذى التقطه الإيمان فى لحظة صدق من بين سحائب الظلم والظلمات ، وحمله على جناحين من نور : علم وحسن خلق ، قصة جديرة بأن تفسر ما أشرنا إليه ، وتوضح فى حكمة وجلاء . . . وإن مولده ونشأته فى ظروف بيئته وعصره ، لدليل على أن الخير قد ينبت فى ظلال السوء ، وأن الفجر يمحى الظلمات ، وأن مع العسر يسرا . . . ! ألا نقرأ فى سورة الطلاق : « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً . . . » ؟

الليلة الأخيرة من شهر رمضان . . يعقبا فى اليوم التالى بهجة الفطر فى العيد . . وباله من عيد . . ! لقد أمسك الناس - مثلاً صاموا - عن الفرح والزينة منذ أعوام طويلة ، لم يهدأ لهم فيها حال ، ولم ينعموا بأمن ولا سلام . . إنه الزلزال المدمر ، فى صورة فتنٍ كقطع الليل المظلم ، وأطاع الجشع والمؤمرات أو قل هى النفس البشرية حين تخلع لباس الإيمان ، وتمزق جدار الخلق الحميد ، فتنتطلق بلا قيد وتجاوز دافعة كل حدود ، وتفعل ما فعلت بالأندلس دُرّة العالم فى ذلك الوقت من عام ٣٦٦ هـ . وقد انقضى يومها أزهى عصور تلك الدولة الفتية بوفاة الخليفة الحكم ابن الرجل القوى المستنير عبد الرحمن الناصر . رحلَ بعد أن

حكم الأندلس زهاء خمسين عاما ، قضى فيها على الاضطرابات ، وفهر
الأعداء والطامعين ، ومكّن للدولة العربية الأندلسية أن ترسخ وتمو
وتزدهر بما يجعلها تزهو وتفاخر ببغداد عاصمة الرشيد ، وتوقها علما وأدبا
وفنا وتراء وعماره وأمنها ورخاء . . يكفينا فقط أن ندخل مكتبة الخليفة
الحكم - أعلم الأمويين الذين حكموا وأرجحهم عفلا بلا جدال - ونلقى
نظرة على ما تحوى من كتب ومخطوطات ، ونحاول أن نحصى عدا ،
فنجدها تروى على أربعمئة ألف مجلد ، كما يؤكد لنا « المقرئ » صاحب
نفح الطيب !

بموت الحكم ، يبدأ عصر الفوضى والاضطراب ونمزق الأمة ،
لدرجة أن بعض الولاة والطامعين من الحكام السفهاء استعان بأعداء
الدولة ليتمكنوا لهم فتمكنوا منهم ، وتلك عتقى الأشرار ! ومن أسف . أن
ما بناه العظماء والمصلحون في مئات السنين ، أدلاح به المخربون في أيام
معدودات ، كان وقعها الخيف على نفوس الناس وعقولهم فوق القدرة
والاحتمال .

بدأت تلك الأحداث المروعة الدامية غداة وفاه الحكم ، وإعلان
ابنه الطفل هشام المريد خليفة من بعده . ولما كان عمره نحو عشرة أعوا
فقد مكنت أمه لوكيل أعمالها المنصور بن أبى عامر من بسط يده في الدو

حتى تولى رمام الأمور ، وأصبح هو الحاكم الفعلى ، يسجن ويسفك
وينتهب ويوقع الفتن بين الولاة والرؤساء والقادة وأصحاب الرأى
والمكانة ، ويضرب بعضهم ببعض ثم يفضى عليهم جميعا . ثم راح
ينكل بالعرب ويصرفهم عن مراتبهم ، ويقدم عليهم الموالى والبرابرة ،
فكان عهده الذى استمر سبعة وعشرين عاما فترة مظلمة جرّت وراءها
سلسلة متتابعة من الفترات التى كانت أكثر ظلما وعنتا وقهرا ودمارا ،
حتى جاء يوسف بن تاشفين ، أمير الملمثمين ، وأقوى ملوك الطوائف ،
ليتولى الأمر بالأندلس ، بل يحكم بحكمة واقتدار وصلاح وإصلاح ،
أعظم إمبراطورية إسلامية فى الغرب العربى ، ويقم بها الدولة المرابطية
الكبرى .

فى فترة من فترات القهر والفتن المتلاحقة وفى الليلة الأخيرة من شهر
رمضان - شهر الصبر والاحتمال - عام ٣٨٤ هـ ، السابع من نوفمبر
٩٩٤ م . يولد على بن أحمد بن سعيد بن غالب بن حزم ، الذى سوف
يُعرف ويُسَتهر فيما بعد باسم الإمام ابن حزم ، أحد الأئمة الكبار ، الهادين
المهتدين بفضل الله وبرحمته .

ولد فى مدينة قرطبة ، بعد صلاة الصبح وقبل شروق الشمس ، كما
يحكى هو فى بعض كتبه . . أى أن ميلاده جاء فى الفترة التى تفرق بين
الظلمة والنور ، والتى يتبين فيها الخيط الأبيض من الخيط الأسود . .

فكأنما هذا الميلاد بشير خير وبركة ، وإيذانا بطولوع فجر على البشر ندى
وضاء

وذلك ما كان

إذا قلنا إن هذا الوليد جاء وفي فيه ملعقة من ذهب أو ما هو أثمن من
الذهب ، فلا نعالى . فأسرته مشهورة فى الأندلس مرموقة ، يقول عنها
الفتح بن خاقان : « بنو حزم فتية علم وأدب ، وثنية مجد وحسب » . ولّى
الوزارة منهم أكثر من واحد ، ولهم فى قرطبة جاه ومكانة . يرجع نسبهم
إلى رجل فارسى يدعى يزيد ، أسلم ثم كان مولّى ليزيد بن أبى سفيان بن
حرب بن أمية أخى معاوية ، والذي كان قائدا لجيش الأردن أيام الفتح
فى عهد عمر بن الخطاب . رحل مع البيت الأموى إلى الأندلس ، حين
اتجهوا إليها ليقيموا بها مملكة راسخا وطيداً استمر بضعة قرون .

وأبوه . أحمد بن سعيد ، من كبار الوزراء ، ولى الوزارة للمنصور بن
أبى عامر ، ثم لابنه المظفر من بعده . غير أنه لم يسلم من الأحداث
والمؤامرات والفتن التى دهمت تقريبا كل بيت ، فلقى الكثير من
الأزمات . وتتابع عليه المحن والنكبات ، وأحرق قصره غير مرة ،
ويروى ابن حيان أنه مات مقهورا بعد عز شامخ - ولا عجب : فمن
يقترب من سلطان الظلم ، إن لم يظلم مثله ظلم ، كمن يدنو من وهج
النار ، لا يسلم من اللسع أو الحريق !

فى القصر - بيت الأسرة العريقة - ولد ابن حزم ، وأشرف أبوه على

تربيته بكل الحب والرعاية ويأبى أن يترك لنا أس حزم في بعض ما كتب ،
معلومات كثيرة عن سآته ونقل أسره بين الدور الفادحة والحديثة ،
وما فيها من أنس وعمران . وفي تلك الدور أو الفصور ، تبدأ السشة
الأولى للطفل ، وهي حيا عربية مع ما تلاها من مراحل حياته وهذه
الصزة نكسف عن بوعه وتفوفه ، وإليها يرجع الفضل والأثر الأكبر في
صباغه وبائه على هذا السو الذي يكاد يفرد به عن غيره من علماء
الإسلام شرقا وغربا على السواء . .

لقد نشأ في حجب الساء من أهل بينه ، وفيه مريات عالما .
يقول : « . . . ولقد شاهدت النساء ، وعلمت من أسرارهن ما لا يكاد
يعلمه غيري . لأني ربيت في حجورهن ، ونشأت بين أيدهن ، ولم
أعرف غيرهن ، ولا جالست الرجال إلا وأنا في حد الشباب وحين تبقل
وجهي . وهن علمني القرآن ، وبنني كثيرا من الأشعار ، ودرّسني في
الحل . . »

سأف إذ يغلب عليها النزاء والنعمة والرفق والأنس معاً . أحادبت
رفينة محبة ، وباعل بنو عن الفبح والغلطة ، وعلاقات تحكما الطباع
السمة الطريفة ، وسودها مآثر الأدب السامي والتفاقة الرفيعة . . وقد
ترك ذلك كله بلا شك تأثيرا واضحا على خلق الرجل وطوع طباعه طوال
حياته التي أمضا وهو عالم جليل ، له مذهب الذي أجاد فيه واجتهد . .
لنا برحان العلوم الديبة جد صارم يفصح غالبا عن خشونة النساء ،

وتشدد غلاب يكشف عن طول معاناة .

هذا مثلاً نموذج لتعبيره - فيما بعد - عن الإحساس بالجمال ، يفيض
عذوبة ورقة ، صاغه شعرا في الأيام التي سوف يكتب الشعر فيها هو
وتسليّة :

مَنَعْتَ جِالَ وجهك مُقَلَّتِيَا ولفظك قد ضننت به عليّا
أراكِ نذرتِ للرحمن صوماً فليست تكلمين اليوم حيّا
وقد غنيتِ للعباس شعرا هنيئاً ذا لعباس هنيّا
فلو يلقاك عباس لأضحى لفوزٍ قالياً وبكم تسجياً
ومن عجب أن هذه النشأة على ما فيها من عزٍّ وترف وما يشبه العزّة
والاعتكاف بين وفرة من الجمال الأنثوي الذي دفعه إلى الكتابة عنه
باستفاضة نثراً وشعراً ، لم تجره الى فعل يُشينه أو يُنكر عليه ، وكأنه رأى
برهان ربه ، فأعرض قادراً ، عفيفاً مُصاناً وكفاه أن يكون من
الشاكرين ! فهو نفسه يعتبر ذلك « من نعمة ربه » إذ يقول :

« . . فلم أزل باحثاً عن أخبارهن ، كاشفاً عن أسرارهن ، وكنّ قد
أنسنَ مني بكتّان ، فكن يُطلعنني على غوامض أمورهن . ولولا أن أكون
مُنبّها على عوراتٍ يُستعاذ بالله منها ، لأوردتُ من تنبهن في السر
ومكرهن فيه عجائب تُذهل الألباب ، وإني لأعرف هذا وأتقنه . ومع
هذا ، يعلم الله ، وكفى به علياً ، أني برىء الساحة سليم الأديم ، صحيح
البشرة ، نقي الحُجزة . . والله المحمود على ذلك والمشكور فيما مضى

والمستعمم فيما بقى »

ولقد تعلم أنه - فى هذه البيئة والتنسئة المترفة - جاهد نفسه كثيرا حتى تأصل فيه ذلك الخلق الرفيع ، وأصبح ملازما له إلى مدى العمر .
فها هو يخذلنا - فيما بعد -- بصراحته المعهودة فى كلامه : « ولقد ضمّنى المبيت ليلة فى بعض الأزمان مع امرأة من بعض معارفى ، مسهورة بالصلاح والخير والحزم ، ومعها جارية من بعض قراباتنا من اللاتى ضممتها معى النسأة فى الصبا . لم غبت عنها أعواما كثيرة . . ووجدتها قد جرى على وجهها ماء الشباب ، ففاض وانساب . وتعتجرت عليها يابيع الملاحة ، فترددت وتحيرت ، وطلعت فى سماء وجهها نجوم الحسن ، فأتشرفت وتوقّدت ، وانبعث فى خديها أزاهير الجمال ، فتعت واعنمت فأتت كما أقول .

خريدة صاغها الرحمن من نور جلّت ملاحظتها عن كلّ تقدير
لوجاءنى عملى فى حسن صورنها يوم الحساب ويوم النفخ فى الصور
لكنّى أحظى عباد الله كلّهم بالجنّتين وقرب الخرد الحور
وكانت من أهل بيت صباحة . وقد ظهرت على صورة نعجز
بصاف ، وقد طبق وصف شبابها هرطقة ، هبت عندها ثلاث ليال
لية ، ولم تحجب عنى على جارى العادة فى التربية - فلعمرى لقد
أن يصبو ويثوب إليه مرفوض الهوى ، ويعاوده منسى الغزل ،
مت بعد ذلك من دخول تلك الدار خوفا على لئى أن يزدهبه

الاستحسان . ولقد كانت هي وحسب أهلها من لا تُعدى الأطلح
إلين . ولكن الشيطان عدو مأمون الغوائل . وفي ذلك قول :
لا تُنبع النفس الهدى ودع التعرّس للمسح
إليس حتى لم يمس العين سبب للنس
يبلغ الفتى سن السباب . . السباب طموح وانطلاق وفتوة فأى
طريق يسلك ؟ . لو سار في دروب المنعة واللهم وريّة الحياه الما . فلا
غربة أن يفعل . ولو سلك دهاليز الساسة وارتقى معارجها أو حاب
معارفها . فلا يكر ذلك عليه . وأبوه خاض أمواجها من قبل ومن
بعد ، وصارعها حتى صرعه .
عد أن المرء تادعه أفعاره كما تسخر هو لصنع قدره . . فكل ميسر لما
خلق له . . اختار طريق العلم والعفة . وأجاء ١٨ الاختيار نتيجة لمصادفه
مخجلة مضحكة في آن واحد !
عندما كان في سن السادسة والعشرين ذما يقول من به . لم
يكن يدري كيف يم صلاة من الصلوات ! ! وفي ذات يوم ، شهد
جنارة رجل من أصدقاء أبيه . فدخل المسجد قبل صلاه العصر
فجلس ولم يركع (أى لم يصل ركعتين تحية المسجد) فأشار إليه أسناذ
معلم بالمسجد أن قم وصل تحية المسجد . فلم يفهم ما يعنى ، فقال رجل
يجلس بخواره (سائرا) : أبلغت هذه السن ولا تعلم أن تحية المسجد
واحدة ؟ ! . يقول ابن حزم :

« فلما انصرفنا من الصلاة على الجنازة ، مشاركة للأحياء من أقرباء الميت ، دخلت المسجد ، فبادرت بالركوع . فسمعت صوتا يعنّفى أن : اجلس ، اجلس ، ليس هذا وقت صلاة : فانصرفت وقد خزيتي ولحقني ما هانت علىّ به نفسى . وقلت للأستاذ (المعلم) : دُلّني على دار الفقيه المشاور أبى عبد الله بن دحون . فدُلّني . فقصدته من ذلك المشهد ، وأعلمته بما جرى فيه وسألت الابتداء بقراءة العلم ، واسترشدته فدُلّني على كتاب الموطأ لمالك بن أنس رضى الله عنه ، فبدأت به عليه قراءة من اليوم التالى لذلك اليوم ، ثم تتابعت قراءتي عليه وعلى غيره ثلاثة أعوام ، وبدأت بالمناظرة . » !

رواية أخرى تقول ، إنه حضر مجلس فقه لابن واجب ، فاشتراك في المناقشة ، واعترض على بعض الآراء التى طُرحت ، فقال أحدهم الحاضرين : لا شأن لك بهذا . فقام ودخل بيته ، وظل فيه عاكفاً لا يكف عن القراءة والحفظ ، وما خرج إلا بعد شهور يجلس للمناظرة ، فأجاد وأحسن !

وسواء كانت هذه الواقعة أو تلك ، فالواضح أنهما تدلان على حياء شديد ، وحسّ مرهف ، واحترام للنفس فى ثقة وعفاف . . اكتسبها من بيئته التى نشأ فيها والتربية التى شب عليها . . لقد واجه موقفا كشف عن نقص فيه ، أو أظهره عاريا على ملأ ، فأراد أن يستتر سريعا بأزهى رداء وأجمله ، فكان رداء العلم والتقوى . . أو قل هو التحدى السامى !

السليل ، يفجأ أصحاب الكرامة والإرادة والهمم ، حين يقفون في مواجهة أنفسهم ، وقد استبان ما فيها من وهن أو حور ، فسرعان ما يحاسبون أنفسهم حسابا عسيرا ، ويزنون أعمالهم بميزان صدق لا يخيف ، فيبدلون ضعفهم قوة ، وخوفهم أمنا وعجزهم قدرة وهؤلاء هم أولو العزم الذين أنعم الله عليهم من عباده الصالحين . وقد بين بعض صفاتهم فقال . « . . تذكروا ، فإذا هم مبصرون »

يقول ابن حزم :

أقول لنفسي ما مبین كحالك	وما الناس إلا هالك وابن هالك
صن النفس عما عابها وارفض الهوى	فإن الهوى مفتاح باب المهالك
رأيت الهوى سهل المبادي للبذخ	وعقباه مر الطعم صنك المسالك
ومن عرف الرحمن لم يعص أمره	ولو أنه يعطي جميع الممالك
سبيل التقى والنسك خير المسالك	وسالكها مستبصر خير سالك
فيا نفس جدي في خلاصك وانفدي	نفاذ السيوف المرهفات البواتك
أفلو أعمل الناس التفكير في الذي	له خلقوا ما كان حي بضاحك !

ذاك حديث النفس ، وخلاصة التجربة الشاقة والموقف الصعب الذي وقفه يوما ابن حزم ، فاستثمره وأطعم من ثمره علما وفقها وثقى ونورا ، كما يأبى الله إلا أن يتم نوره . .

تم يأتي دور الصديق الصادق الأمين . . وحقا ما قيل : اصحب من ينهضك حاله ، وتذكر على الله فعاله ، إذا نسيت ذكرك ، وإذا ذكرت

أعانك . ولقد صحب ابن حزم في رحلته الطويلة مع المعرفة والعلم ،
صديق مستقيم النفس والخلق ، هو أبو الحسين بن علي الفاسي ، كان في
منزلة الأستاذ لابن حزم في التربية وحس الخلق . يعترف بفضله عليه
وبفضائله فيقول : « وكان أبو الحسين عاقلاً ، عاملاً ، عالماً ، ممن تقدم
في الصلاح والنسك الصحيح في الزهد في الدنيا والاجتهاد في الآخرة .
وما رأيت مثله جملة علماً وعملاً وديناً وورعاً . فنفعني الله به كثيراً ،
وعلمني موضع الإساءة وقبح المعاصي » .

إن العرب ليتناقلون تلك الحكمة الماثورة . . أسأل عن الصديق قبل
الطريق « وتلك نعمة أخرى سيقّت لابن حزم : صديق من هذا الطراز
التميز ، ومن أجله - أغلب الظن - أفاض ابن حزم فيما بعد ، في
الحديث عن الصديق المخلص فيقول :

« . . ومن الأسباب المتمناة في الحب ، أن يهب الله عز وجل
للإنسان صديقاً مخلصاً ، لطيف القول ، بسيط الطول ، حسن المأخذ ،
دقيق المنفذ ، متمكن البيان ، مرهف اللسان ، جليل الحلم ، واسع
العلم ، قليل المخافة ، عظيم المساعفة ، شديد الاحتمال ، صابراً على
الإدلال ، جهم الموافقة ، جميل المخالفة ، مستوى المطابقة ، محمود
الخلائق ، مكفوف البوائق ، محتوم المساعدة ، كارها للمباعدة ، نبيل
المدخل ، مصروف الغوائل ، غامض المعاني ، عارفاً بالأمانى ، طيب
الأخلاق ، سرى الأعراق ، مكتوم السر ، كثير البر ، صحيح الأمانة ،

مأمون الخيانة ، كريم النفس ، نافذ الحس ، صحيح الحدس ،
مصمون العون ، كامل الصون ، مشهور الوفاء ، طاهر الغناء ، ثابت
القريحة ، مبدول النصيحة ، مستيقن الوداد ، سهل الانقياد ، حسن
الاعتقاد ، صادق اللهجة ، خفيف المهجة ، عفيف الطباع ، رحب
الذراع ، واسع الصدر ، متخلقا بالصبر . . وأين هذا ؟ (وحقيقة نحن
معه نسأل : وأين هذا ؟ !) فإن ظفرت به يداك ، فشدّهما عليه شد
الضنين وأمسكّ بهما إمساك البخيل ، وضّنه بطارفك وتالدك (أى بما
تملك من جديد وقديم) فعه يكمل الأنس ، وتنجلي الأحزان ، ويقصر
الزمان ، وتطيب الأحوال . ولن يفقد الإنسان من صاحب هذه الصفة
عونا جميلا ، ورأيا حسنا . ولذلك اتحد الملوك الوزراء والدخلاء كى
يخففوا عنهم ما حملوه من شديد الأمور ، وطوّقوه من باهض « أى
باهظ (الأحوال . . » .

تفرغ ابن حزم لرسالة العلم ، وجعلها زاده ، وأفرغ فيها همه وجلس
يستمع ويتعلم من شيوخ وعلماء كثيرين ، وقرأ الفقه على أساندة أجلة :
منقطعين للعلم لا يشترتون به ثمنا قليلا ، فكانوا فى الدين قدوة ، وفى الدنيا
قادة . منهم من كان يهتم بالأدب . مثل الشيخ الجعفرى الذى أحفظه
معلقة طرفة بن العبد وشرحها فى مجلسه بالمسجد الجامع بقرطبة ،
ومطلعها :

لخولة أطلالٌ ببرقة شهيد تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد

وقوفاً بها صَحْنِي على مطيهم
وتتهى بلك الأبواب .
يفولون لا هلك أَسَى وتخلد

أرى الموت أعداد النفوس ولا أرى
سُتُبدى لك الأيام ما كنت جاهلاً
لعمرك ما الأيام إلا مُعاراةً
عن المرء لا تسأل وأبصر قرينه
لعمرك ما أدري وإنى لواجل
فإن تك خلقي ، لا يفتها سواديا
بعيداً غداً ما أقرب اليوم من غد
ويأتبك بالأخبار من لم تُزود
فما اسطعت من معروفها فتزود
فإن القرن بالمقارن مُقْتَدِر
أفى اليوم إقدام المنية أم غدا ؟
وإن تك قدامى أجدها بمرصد

وقد نستغرب من شيخ جليل مثل الجعفرى أن يتناول فى مجلسه
بالمسجد قصائد وأشعارا يفيض فى شرحها وتلاوتها على تلامذه
والحاضرين . ولكنها كانت الأندلس وقرطبة بالذات ، العامرة بكل فن
ولون من ألوان المعرفة تتناقلها الألسن ، وتتجادلها المجالس والمنتديات
ويبدو أن تأثير المادة والمعلم ، كان نافذاً بليغاً ، دفع ابن حزم إلى حُبِّ
الشعر وإجادة قريضه فى تمكّن وأناقة ، للتعبير عن وجدان صادق ،
ونفس فياضة بالصور والأحاسيس .

وبلغ به التمكن فى صياغة الشعر ، أن كتب بقول :
« ولقد عرض لى فى الصبا هجرٌ مع بعض من كنت آلف وهولاً
يلبث أن يضمحل ثم يعود - فلما كنز ذلك - قلت على سبيل المراح شعراً
بديها ، ختمت كل بيت منه بقسم من أول هصيدة طرفه بن العبد
المعلقة . . وهو :

تَذَكَّرْتُ وُدًّا لِلْحَبِيبِ كَأَنَّهُ
وعهدى بعهدٍ كان لى مه ثابتٍ
وَقَفْتُ بِهِ لَا مَوْقَا بِرَجُوعِهِ
إِلَى أَنْ أَطَالَ النَّاسَ عَذْلِي وَأَكْتَرُوا
كَأَنَّ فَنُونَ السُّخْطِ مِمَّنْ أَحَبَّهُ
كَأَنَّ انْقِلَابَ الْمُحْجَرِ وَالْوَصْلَ مَرْكَبُ
فَوَقْتُ رِضًا يَتْلُوهُ وَقْتُ تَسْخِطِ
وَيُبْسِمُ نَحْوَى وَهُوَ غَضَبَانُ مُعْرَضُ
وَلَنْ اتَّخَذَ الشَّعْرَ مَادَّةً لِلتَّسْلِيَةِ وَاطْهَارَ الْمَخْدَرَةِ . فَنَدَّ أَقْبَلَ بِشَغَفٍ وَسِرِّ
وَجَلَدٍ عَلَى الْعُلُومِ الْآخَرَى الَّتِي سَمِتَ بِهِ وَارْتَقَتْ . فَكَانَ مِنْ شَبَابِهِ
عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ يَزِيدَ الْأَزْدِيِّ الَّذِي تَعَلَّمَ مِنْهُ الْفَرَاقَ وَالنَّحْوَ وَاللُّغَةَ . وَتَعَلَّمَ
الْحَدِيثَ مِنْ قَاضِي بَانَسَةِ أَبِي بَكْرٍ الْمُصْعَبِ . وَعَلِمَهُ آخَرُونَ فِي حُلُقَاتِهِمْ
عُلُومَ الشَّرِيعَةِ وَفَنُونَ الْأَدَبِ . . وَلَمْ يَبْخُلْ عَلَى الْعِلْمِ بِوَقْتٍ أَوْ جَهْدٍ أَوْ
مَالٍ . . بَلْ إِنَّهُ لَمْ يَجِدْ غَضَاظَةً فِي الرَّحِيلِ مِنْ أَجْلِ الْعِلْمِ إِلَى الشَّرْقِ .
حَيْثُ لَقِيَ شَيْخَ الْعِرَاقِ . وَأَقَامَ بِالشَّامِ زَمَنًا يَدْرُسُ وَيُبْحَثُ وَيَنْقَبُ .
وَأَدَّى فَرِيضَةَ الْحَجِّ قَبْلَ أَنْ يَعُودَ . .
وَطَالِبُ الْعِلْمِ - مَهْمَا بَدَلَ أَوْ أَنْفَقَ - لَا يَكُونُ أَحَدُوثُهُ بِهَذَا الْبَدَلِ . وَلَا
يَأْتِي عَجَبًا لَوْ أَنْفَقَ . إِلَّا إِذَا كَانَ أَحَدًا فَرْدًا يَعْيشُ بَيْنَ جُهَلَاءَ لَا يَخْفَلُونَ
بِعِلْمِهِ أَوْ مَعْرِفَةِ فَيَنْكُرُونَ عَلَيْهِ مَا يَفْعَلُ . . وَعَهْدُنَا بِالْأَنْدَلُسِ الْعَرَبِي

آنذاك . نحرا فاضيا بالعلوم والصون والآداب والمعارف ، موجات تفوق
الحد والحصر . . وإتما العجب بداخلها عندما نفث على سبره ذلك الرجل
القد ، الذي رُئى في العجم ، وغذى بالنعمة . ثم تتكبد له الدنيا
ولأسرته . ونقلتُ بين السجن والاعتقال والإعرام الفادح - وهذا شأن
السياسة ولعبها في عصور الظلام والمحن إلى أن يموت أبوه الوزير وهو
على هذه الأحوال . . خربت ديار الأسرة ، وهبت ثروتها ، وطمست
معالمها . ولما تغير الزمان وتبدلت المكانة والمكان . عبس الرفاق وتفرق
الأولاد . فارتحل اس حزم يطوف بالبلاد ، ناحتا عن أمل ، ملتصقا
للباء ، مذملا بن المرية وساطله . وبنسبة ثم قاصدا لابن عباد بأشبيلية
مصبها فخره بجزيرة مايورقة . وبعادها حرقا وحربا من تأمر علمائها عليه
وكيدهم له . . يتجه إلى القيروان . وبعدها يعود إلى الأندلس . ويرعم
ذلك كله ، بل في غمرة ذلك كله . لا يكف عن العلم والدراسة
والتحصيل والكتابة والتأليف والمحاضرة والمناظرة ، في إيمان راسخ وعزم لا
يكل ولا يلين ، وكأنه بهذا العلم الوافر ، والخلق الحسن ، والصبر
الجميل ، يشتد ويقوى في مواجهة الأزمات وشروط الناس . فارتفع بإيمانه
وعلمه مكانا عليا : بلا طمع لدنيا أو عرض . . بل كما قال هو في حوار
مع الشيخ الباجي وكان واحداً من كبار علماء الأندلس . .
قال الباجي : أنا أعظم منك همة في طلب العلم ، لأنك طلبته وأنت
دما عليه . تسهر بمشكاة من ذهب ، وأنا طابته أسهر بقنديل من السويق

40

فكان حوَاب ابن حزم في أدب وإفحام : هذا الكلام لك لا عليك لأنك إنما طلب العلم وأنت في تلك الحال ، رجاء تبدلها بمثل حالي ، وأنا طلبه في حين ما تعلمه وما ذكرته (من البراءة والنعمنة) فلم أَرْجُ به إلا عِلْقَ القدر العلمي في الدنيا والآخرة .

بكل العزم والإخلاص والصدق إذن ، انصرف ابن حزم إلى العلم والفقه ، يأخذ نصيبا موفورا ، لا يرجو من الدنيا مأربا أو مخنما . . ومن أخلص السيرة لله ، تقبل الله منه وأجزل له العطاء « إنما يتقبل الله من المتقين » (سورة المائدة) وبعدها ، تفرغ ابن حزم لتسريح العلم بين الناس ، هاديا ، وداعيا إلى الله على بصيرة . . وما أصدفه اذ يقول :

مُنَايَ - من الدنيا علوم أَبْتَهَا وَأَنْشَرَهَا فِي كُلِّ بَادٍ وَحَاسِرٍ
دَعَاءَ إِلَى الْفِرَاقِ وَالسَّنَنِ الَّتِي نَأْسَى رِجَالَ ذِكْرِهَا فِي الْخَاضِرِ

وقبل أن ننسك عن متاعه رحلة الزمان والأحوال ، مع هذا الرجل
النادر المثال ، والنبوغ الفقيه الذى سجاه الأهل . نجب ألا نغفل سفة
أخرى من أروع صفاته التى جعلها معه من نبت النساء الأول . وظل
ملازماً لها لم يفارقها أبداً ولم يفارها ، ألا وهى : الرفا . ٩ . ٩ . ٩ . ٩ .
إلى جانب استمالة التمكن ، والوضوح المميز . ٩ . ٩ . ٩ . ٩ .
والكرم ، فى كل حال

وأصحاب الوفاء العزيز هم ريشانة العصر ، مثل بنصره . قال فال

البراهين على طيب الأصل وشرف العنصر ، وهو يتفاضل بالتفاضل
اللازم للمخلوقات :

أفعال كل امرئ تُنبئ بعنصره والعينُ تعنيك عن أن تطلب الأترا
وكما أن النار تكشف عن صلابة المعدن وأصالة المادة ، أو طيب
أعواد البخور . فكذلك الأزمات والمحن ، يتميز فيها الخبيث من
الطيب . والرياء من الفداء ، والخيسة من الوفاء . ومن كان عفيفا عزيز
النفس كريماً . لا بد وأن يكون ذا وفاء صادق في السرّاء وفي الضراء .
يعمل :

« لقد منحني الله عز وجل من الوفاء (لكل من يمت إلى بلقية
واحدة) حظاً أنا شاكر وحامد ، ومنه مستمد ومستزيد . وما شيء أثقل
عليّ من الغدر . ولعمري ما سمحت لنفسي قط في الفكرة في إضرار من
بيى وبهيه أقلّ ذمام وإن عظمت جريته . وكثرت إلى ذنوبه . وقد دهني
من هذا غير قليل . فما جزيت على السوء إلا بالحسن ، والحمد لله على
ذلك كثيراً . »

بل إن هذا الوفاء الصادق م ينصرف إلى الناس وحسب بل يتراعى
حينئذ إلى الأمان والآسياء . يقول :

« فما نسيت ودّاً لي قط ، وإن حنيني إلى عهد تقدم ، ليغصني
بالطعام ويشرقني بالماء . وقد استراح من لم تكن هذه صفتة . وما مللت
شيئاً بعد معرفتي به . . وما رغبت في الاستبدال إلى سبب من أسبابي منذ

كنت ، لا أقول في الألف والإخوان وحدهم ، لكن في كل ما يستعمل
 الإنسان من ملبوس ، ومركوب ، ومطعموم »
 لقد كان ابن حزم بحق ، قطعة من الأندلس ، وبحملاً في سمائه . غير
 أنه تجاوز الزمان ونحطى المكان . فقد مضت القرون من بعده . وتبدل
 الأرض غير الأرض ، وبقى ابن حزم كما هو . سره تروى ، وفكره يضيء
 للبالكين ، وإنه لذكرى : ولعلها نفع المؤمنين !

آه . . آه . . يا عيني !

إذا سمعت هذا النداء المستغيث يتردد عاليا مثنى ، وثلاث ، ورباع . . فلا بد وأن تنصت لتبين حقيقة أمر صاحبه : أعاشق مقروح ؟ أم داعم مجروح ؟ ! . أهو صبُّ أرقه الوجد والشوق أطربه ، فراح يغنى أو يترنم بمناجاة الحبيب المرتجى ، أم هو مريض يئن ويتأوه من ألم في عينيه ، فطفق يصرخ شاكيا همّه وحزنه إلى الله وإلى الناس ؟ !

وإذ نسترق السمع من وراء ألف عام أو تزيد ، ونصغى إلى صوت يطلق نفس النداء المستغيث في سكون الليل بمدينة « الرّي » القريبة من طهران ، نطرب لسماعه أولا . . فهو نداء واله شجى . ثم نمضى أعواما مع الزمن ، لنسمع نفس الصوت من جديد ، ولكنه في هذه المرّة بكاء اليائس الحزين . . ونعجب لو عرفنا أن صاحب الصوت في الحالين واحد . وأن الأربعين أو الخمسين سنة الفاصلة بين النداءين قد حولت صاحب الصوت من مطرب شاب مغمور ، إلى واحد من أرقى وأشهر علماء الطب في الدنيا على الإطلاق ! ولعل صورته الباقية إلى اليوم ، والتي تخيلها رسام شهير ، ووضعوها في صدر القاعة الكبرى بمدرسة الطب بباريس ، لعلها تخفى الكثير ، وربما لا تُبرز - سواء طوعا أو كرها - إلا معنى الشكر والتقدير والعرفان ، للشعب العربي الأصيل ، الذي أنجب :

أبا بكر محمد بن ركريا الرازى !

لم يقع فى ميلاده وطفولته وصباه ، ما ينبئ عن نبوغ فيه أو تفوق . بل عاش هذه الفترة من حياته -- فى النصف الأخير من القرن الثالث الهجرى - كغيره من أقرانه ، بين أهله وعشيرته ، وكانوا فوما أشداء ، يتميزون بطول فارغ ، وشعر أسقر ، وصلابة أهل الجبال ، مع حدة الطبع وعزم الإرادة وخفة فى الحركة . ومن هنا كان العرب يسمونهم « الثعالب الحمراء » .

فى المدرسة تعلم ، كأى غلام فقير يعيش تحت المظلة العربية الإسلامية . فالتعليم متاح بلا أجر للجميع ، لم يعد وففا على طائفة أو طبقة . بل هو - ولأول مرة فى تاريخ البشرية - حق للفقراء قبل الأغنياء ، وزاد لهم وشفاء . . وأول طريق العلم : المسجد . وفى المسجد ، نعلم الرازى حب اللغة العربية ، فأقبل عليها ، فلما كبر قليلا أبدى اهتماما بدراسة الفلسفة والرياضيات دون أن يشارك فى المناقشات الفكرية التى كانت سائدة حينذاك ، وحيث كانت بلدته « الرى » فى خراسان معقلا من معاقل أهل السنة .

لقد كان الفتى الرازى مشغولا بأمر آخر : بتعلم الموسيقى ثم الغناء . وحقق بالفعل بعض الشهرة كعازف ومغن . وكاد أن يمضى قدما فى هذا الطريق ، لولا أن الإنسان يتبع قدره وإن لم يكن يدرى ! . . فى سن الثلاثين ، يخلو قليلا إلى نفسه ، فى ساعة من تلك الساعات

الوصاء المباركة ، التي يحظى بها الإنسان على حين غفلة ، فإن أمسك بها وإنه واستنصر ، سعد وطفر . وإنها لحكمة بالغة ، أن يعي المرء - للدين والدنيا معا - مغزى قول النبي ﷺ « حاسبوا أنفسكم قبل أن نحاسبوا ، ونرنا أعمالكم قبل أن توزن عليكم » .

في ساعه المحاسبة مع النفس ، حاول الرازي أن يرن عماءه ، وأن يتيهم مسعاه ، فأدرك دون عنا ، كبير ، أنه ضائع مضيع : وقته ضائع وجهده مضيع . . وشعر أن حالة من الرتبة فالكآبة فالممل ، نسوة حياته وتياد طافاته ، وهو مازال بعد في سن السباب الماضج إنه لظالم لنفسه إذن لو نمدى في هذا العبت وإن ضمن له بعض السهرة والمال وحبر له أن يرجع من فربب

ولسا نعرف على وجه اليقين ، هل وضع في حساباته قول الساعر المنبي : « على فادر أهل العزم نأى العزائم » ٢ . إلا أنه عزم على أمر سوف يكشف عن طموح الأقداد من الرجال ، وقدره أصحاب الهيم الشوامخ ، تماماً كهاده الضم الجبلية السابقة التي تحيط بما بنته « الرى » حمل بعض متاعه ، وخرج مع القافلة التي تغادر البلدة ، مهاجرا بأحلامه إلى أرض الله الواسعة . وقد حفظ صغيرا في مدرسة المسجد ، أن خاتم الأنبياء ﷺ خرج من بلدته الأثيرة إلى نفسه مكة مهاجرا إلى الله تعالى ، وأن بعض الرواة نسبوا إليه فولا مشهورا جاء فيه : « الله يعلم أنك أحب البلاد إلى » ولولا أن أهلك أخرجوني منك

ما خرجت ! فلنكن هجره إدا إلى بغداد ، عاصمة الدنيا حينذاك ،
ومدينة العلم والأمل والطموح . . أليس العلم فريضة وجهاداً ؟ !
وأغلب الظن ، أن رحلنا - أبا بكر الرازي ، حاور نفسه طويلاً إلى
حد المعاناة قبل أن يخلص إلى هذا القرار . . والطريق إلى بغداد ساق
بعيد . . ولو كان الأمر مقصوداً على مزيد من دراسة أو علم أو صنعة ، فإنه
لن يعدم نخته في مدينة « الري » أو في مدينة قريبة بخراسان حيث يكرم
طلاب العلم ويهجن العلماء ، مثلاً يكرمون ويهجلون في حواضر أخرى
بالعراق والشام ومصر والمغرب والأندلس ، وهذه على وجه اليقين « مرو »
سناخذه غير بعيد ، في كل جامع كبير بها مكتبة ، وفي كل شارع تقريباً
مدرسة ، ويتسرف في أحيائها العامرة انتاعنصره حزانة للكتب (مكتبة
عامه) تضم الواحده منها نحو من اثنى عشر ألف مجلد طبعا لما ذكره باقوت
الحسوي صاحب معجم البلدان . هذا في الوقت البا ، ان ، فيه المكتبة
الكبرى بكاندراتيه مده كسائر مناه لا يحوى سوى ثلثاته ، سنة وحسنين
كدا

ولما . . . من حرص الناس على العلم وعلى التناقل . . . افعه
حدثت في ذلك الحين . . وتناقلها الألسن : ذلك أن بعض اللصوص
سرق دار الوزير أبي الفضل بن العميد بالري ، وانتهب كل ما فيها من
ال وأثاث ، فلما دخل الوزير البيت ، لم يجد شيئاً يجلس عليه أو يناء
سرب فيه . فسأل مدعورا خازن كتبه ابن مسكويه - المؤرخ فيما بعد -

هل سرق اللصوص من خزائن كتبه شيئاً ؟ فلما طمأنه ابن مسكويه وأخبره أنها بحالها لم تمس سرّ عن الوزير وانقشع غمه ، وشكر الله الذى أنقذ كتبه وفيها من كل العلوم والحكم والآداب « وهى التى لا عوض عنها » كما قال ، أما سائر الأشياء فأمرها هين ميسور !
إنه إذن القدر المفدور ، والحلم البراف المتوهج فى خيال الشاب الطموح النازع إلى بغداد . .

وبالها من مدينة تستثير الخيال ! . .

عاصمة الخلافة ومستقر أمير المؤمنين ، الذى يذكر اسمه من فوق المنابر مع كل صلاة جامعة ، حيثما امتدت مظلة سيادته وعدله : من فرغانة وأقصى خراسان شرقاً ، إلى طنجة غرباً ، وإلى عتبات قصره المهاب ، يأتى الولاة والأمراء والعلماء والرسل ، يحملون إليه فاخر الهدايا فيمنحهم ما يجود به من رتب وألقاب . . فلا غرو إذن ، أن يجلس أمير المؤمنين مسترخياً على أريكة وثيرة موشاة بالذهب فى حديقة قصره ، ويرقب سحابة عابرة فى السماء ، فيخاطبها مزهوا باقتدار ويقول : « شرقاً أو غرباً ، فأينما أمطرت فلسوف يأتينا خراجك !

فى المقابل ، كانت أنظار الملايين من الشرق ومن الغرب ، ترنو إلى بغداد ، تستحث عزائمهم سعياً إليها . وفى الوقت الذى كان المواطن الأوربى لا يأمن على نفسه أو ماله أو عرضه من التجوال فى إقليمه أو بلده الصغير المحدود ، كان المسلم - وكل من يعيش فى حوى الإسلام - يتنقل

داخل حدود هذه المملكة الشاسعة الجامعة ، مملكة الإسلام كما يسميها المقدسي والمسعودي ، يقطعها لو أراد من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب في نحو عشرة شهور متصلة ، وهو آمن حر طليق ، في ظل دينه وتحت رايته . وأيها حل أو ارتحل ، وجد الناس يعبدون ربه الذى يعبد ، ويقيمون الصلاة التى يصلى ، ويتكلمون اللغة التى يفهم ، ويحتكمون إلى القانون الذى يعرف . . . أعراف واحدة ، وتقاليدها وعادات سائدة لا تكاد تختلف . . فهو إذن يمشى فى أرجاء وطن واحد ، تضبطه شريعة واحدة يتساوى فى ظلها الجميع ، وفى رحابها يتحقق الأمن والحرية والسلام . .

فى بغداد ، كما فى غيرها من المدن الكبرى ، وعواصم الولايات والأقاليم ، كانت دور الكتب ودور العلم مملوءة بالطلاب والزوار والمقيمين « لا يُسمع أحد من دخولها » كما يحكى لنا المؤرخون . وكثيرا ما كان يلحق بدور العلم « مساكن للغرباء الذين يطلبون العلم ، وتجرى لهم الأرزاق » . وفوق ذلك ، كان فى المكتبات وفى دور العلم « ما يحتاج الناس إليه من الخبر والأقلام والمحابر والأوراق . . » .

كان جامع المنصور ببغداد ، وهو أقدم مسجد جامع بها ، أشهر مركز للتعليم فى الدولة الإسلامية ، لا يدانيه إلا المسجد الجامع بالقاهرة ، الذى أحصى المقدسي مجالس العلم فيه وقت صلاة العشاء ، فوجدها مائة مجلس وعشرة متجاورة ! ! .

يصل الراى إلى بغداد . . وها هو ينجول فى أحياء المدينة ، ويتنفل بين مجالس العلم والدرس فيها ومرة أخرى يهديه هدره إلى دراسة الطب . . ولا أحد يدرى على وجه اليقين ، أى الدوافع التى ربت له سلوك هذا الطريق . وما هى الصلة بين احتراف فن الغناء والألحان والموسيقى والتطريب ، وبين تعلم فن الطب والحراحة والعقاقير والتطبيب إلا إذا كانت صلة تبغى العناية بالحنجرة واللسان والأحبال التى تصدر الأصوات ، وبالعقل الذى يعى ويؤلف ويبدع وببكر ولقد اعتاد الناس أن يسمعوا عن طبيب يهوى الموسيقى ، أو صيدلى حسن الصوت . ولكن من غير المؤلف ولا المعهود أن ينخرط العازف المغنى المحترف فى زمرة الأطباء الحكماء ، بعد تجاوز سن الثلاثين أو الأربعين . غير أن هذا بالفعل ما كان !

أقبل الراى بحماس وشغف على هذا العلم الجديد ، واستوعب فى سرعة ونهم فنون الطب والعلاج الإغريقية والفارسية والهندية ، ثم العربية الوليدة الناشئة . وبعد أن عب من هذا المنهل وارتوى . آثر أن يعود إلى بلده ومسقط رأسه ، ليضع خبرته الجديدة فى خدمه أهله وعشيرته وفقراء مدينة « الرى » . ويستمر فى عمله ، يؤديه بأمانه وكفاءة وافتدار . إلى أن يُختار مديرا لمستشفى المدينة .

ومرة أخرى تتباه حالة القلب والحوار مع النفس : هل توقف الطموح والأمل عند هذا الحد ؟ ألم تهبى الظروف - بل الأفئدة - أمامه سبلاً

لاكتشاف بعض طاقاته وقدراته ، وأخرجت من كثر العطاء الإلهي ، وهو
الوديعة في كيان الإنسان ، فيصا طبيبا فيه سقاء للناس ؟ . عبر أن
أصحاب المهيم العالية لا يتوقفون عن الارتقاء والسعي ، دون تراخ أو
كلالة أو وهن . . ألم يحفظ في صباه من القرآن الكريم (فإذا فرغت
فانصب) ؟ !

فالآن ، يعود إليه فراغ داخلي يحس به دون سواه ، وإن توارى خلف
المصب والمكانة والعمل المتواصل الأمين . وبزياد من وطأة الإحساس
تثقل هذا الفراغ ، أن الرازي بطبعه وخلقه ، عزوف عن جمع المال
واستحلاب الشهرة والجاه . فلانما عليه ، أن يكد وينصب على نحو
ما يفعل العطاء من الرجال . وإذا كان للعظمة في الرجال موارد
ومقاييس ، فلا بد وأن يكون من بينها التفوق المستمر العفيف ، مع العطاء
الراقي المتواصل ، الذي لا يريد من أحد جزاء ولا شكورا .

وحسب الرازي طبيا أن يكون عظيما بين الرجال لو كان يتميز فقط
بتلك الصفات التي يوزن بها الصفوة من الحكماء والأطباء . فما بالناس وهو
يملك الكثير غيرها بلا تصع ولا افتعال !

دلبنا على ذلك ، أنه لما طلب للعمل رئيسا لأطباء المستشفى الكبير
بالعاصمة بغداد ، وفتحت أمامه أبواب قصور الأمراء والأثرياء ، ومنها
فصر الخليفة ذاته حيث عين طبيا خاصا له -- لم يركن إلى أهنة المناصب
ولم يحفل بما اجتمع له من هدايا وأموال . بل نراه ينفق هذا المال كله -

إلا قليلا منه - على الفقراء من المرضى وأصحاب الحاجات . إن شغله الشاغل ينحصر في المزيد من العلم ، والمزيد من التجريب والاستنباط ، والمزيد من النجاح في معاركه المستمرة مع المرض .

يصبح الرازي اسما مشهورا على كل لسان ، في طول البلاد وعرضها . . إليه يأتي وفود الأطباء والتلاميذ من كل أرجاء الوطن العربي الكبير ، يتلقون المعرفة الطبية المتقدمة ، على يد هذا الحكيم الفذ : فهو المرجع والحجة ، وهو الأستاذ المفسر . . وفوق ذلك : هو الحكيم الإنسان . . !

من اليسير أن تصادف رجلا يتميز باطلاع واسع على جوانب من المعرفة ، أو بدراية كاملة بدقائق عمله ، في سرعة إنجاز مع حسن أداء . وعندئذ قد ينال نصيبا من إطراء الناس وإقرارهم بمقدرته ، وإن لم يسلم من مثالب دعوى أو وشايات حسود . لكن ، أن تجد هذا الرجل البارز التفوق ، محبوباً مبعجلاً من الكثيرين ، مُحاطا بالود والاستحسان أينما حل ، خاصة من البسطاء والفقراء الذين لا يُجيدون نفاقا ولا مراعاة ، فهو بلا ريب يضيف صفات «إنسانية» إلى مجموع سجاياه . .

هكذا ، كان الرازي وهو في أوج شهرته ونجاحه وتفوقه : أحاط بمعارف طبية واسعة شاملة ، لم تجتمع في أحد قط منذ أيام جالينوس . ومع ذلك ، ظل نهبا للمعرفة ، في سعى دائم وبحث دائم عنها ، سواء في المخطوطات والكتب ، أو بالاتصال بالحكماء والعلماء ، أو في

المعامل وتجارب الكيمياء ، أو عند أسرة المرضى ، فكان الموسوعى الشامل ، الذى استوعب كل معارف سابقيه فى الطب ، ثم أضاف إليها وقدّمها أحسن تقديم للبشرية جمعاء . وهو الطبيب - المعلم ، الذى قدم للعلم وللعلماء منهج التجربة والملاحظة فى الكيمياء والطب ، بنظام رائع ووضوح يستحق الإعجاب . وهو العالم القدير الشجاع ، الذى تصدى - فى صلابة وحزم - لشعوذة أدعياء العلاج والدجالين الذين يوهمون الجاهلاء بطرد الشياطين من أجسام المرضى المعذنين بالأوجاع والعلل . وبينما كان أبو قراط - الذى يلقبونه بأبى الطب - يعرف الطب بأنه « الفن الذى ينقذ المرضى من آلامهم ويخفف من وطأة النوبات العنيفة ويتباعد عن معالجة الأشخاص الذين لا أمل فى شفائهم » ، نرى الرازى يقفز قفزة إنسانية رائعة ، بدافع من إيمانه وعقيدته ، إذ يقرر : إنه لواجب محتوم ، أن يبذل الطبيب قصارى جهده فى علاج المرضى الذين فقدوا الأمل فى الشفاء . كما هو لزام عليه ، أن يوهم المريض بالصحة ويرجّيه بها ، مهما كانت خطورة حالته ، حتى ولو لم يكن الطبيب ذاته واثقا من ذلك ، لأن « مزاج الأجسام مرتبط بمزاج النفوس » . (أليس الطب الحديث المعاصر ، يؤكد باستفاضة ، أن الحالة المعنوية النفسانية للمريض جزء من العلاج ؟ !)

وكثيرا ما كان الرازى العظيم يقول صراحة : إن الذى يتعامل الجسم البشرى - أحمل مخلوقات الله فى الحياة الدنيا - مطالب بأن يَـ

الحب رائدا له في عمله . إنه قانون أخلاق نبيل ، يصدر عن ضمير المجتمع العربي الذي صفه الإسلام وهذبه ورباه . وفي تطبيق هذا القانون ، كان مبدعه - الرازي - خير مثال وفدوة وقد نذكر هنا ، تأكيداً وتطعيماً لهذا القانون الإسلامي ، أن مرضى الأعصاب مثلاً في الحالات المستعصية والحظيرة ، كانت تقام لهم العيادات المنتظمة والبيمارستانات ، زادت وانتشرت في كل بلاد العرب تحت مظلة الإسلام وكان بعضها كما فعل عرب الأندلس بسمى باسم : « مستشفى الأبرياء » . يجاون فيه العناية البالغة ، والمرافقة الصحية الرحيمة ، والإشراف العلاجي الجاني المستمر . بينما كان أمثال هؤلاء - في دات العصر ، بل حتى القرن التاسع عشر الميلادي - يعاملون في أوروبا وفقاً للقانون الطبي السائد هناك والذي ينص على « أنه لعمل لا « أخلاق » أن يغفل الطبيب عن توجيه مريضه الميئوس من علاجه والمشرف على الهلاك وإبلاغه بمصيره حتى يتوجه إلى الله ! وللطبيب أن يجعل موت المريض لكي يخلصه من الآلام » ! !

من أجل ذلك ، كانوا ينظرون في أوروبا إلى مرضى الأعصاب نظرة اشمئزاز ، على اعتبار أنهم ملعونون من السماء حل بهم العقاب جزاء ما افترفوا من آثام ، أو لأن الشياطين حلت بأجسامهم فاستحقوا العذاب ! لذا كانوا يضعون هؤلاء المعذنين الأبرياء في سجون خاصة كثيفة معنمة عفنة ، وأيديهم وأرجلهم مقيدة بالأغلال ، وأطلقوا على

تلك السجون أسماء تفصح عن القسوة والظلم المهين ، مل « المستقى السجس » . أو « برج المجانين » ، أو « الففص العجيب » وفيه يتولى أمرهم رجال أو ساء غلاظ أشداء ، يتعاملون معهم بالصرع والتعذيب والسب والإدلال !

يخطو الراى - العالم الرصين المحبوب - خطوات أخرى من أحل الفقراء لم يسبق إليها أحد غيره : يؤلف كتابا يسميه « طب الفقراء » ، وصف فيه الأمراض الشائعة ، أسبابها وظواهرها ، وطرق علاجها والوقاية منها ، وذلك بأساليب ميسورة في كل وقت وفي كل بيت : مثل أسرار الجدرى والحصبية ، وآلام المفاصل ، والحصى المترسبة ، وآلام الكلى ، وأمراض الأطفال . . ولم يغفل الإشارة إلى أهمية العناية بعوامل الحرارة والرطوبة والرياح والضوء ، ونظافة الهواء والمكان ، داخل البـ وخارجه ، وطهارة المياه وفوائد الاغتسال . وتيسيراً على الناس ، يفضل وينصح في علاج كثير من الحالات باستخدام النباتات الد الطبيعية كما خلقها الله .

ومن هنا ، فقد أضاف كتابا آخر عن فن الطبخ ، لاجبا منه و وصف لذيق الطعام وحلو الشراب ، وإنما ليتحدث عن أفضل وأسلم الطرق الصحية لإعداد أنواع من الطعام ، في الحالات العادية (كوقاية) وفي مختلف الحالات المرضية (كعلاج) ، وما يؤكل وما لا يؤكل في بعض الحالات

وتمضي السنون المباركة من عمر هذا العالم الحليل ، إلى أن تتجاوز الثمانين . لكنها تبدو في النهاية ، رحلة وثيدة متقلة بالكآبة والملل والمعاناة . تماما كما شعر بها في مستقبل حياته عندما كان يغنى للناس ويؤلف الألحان . تقترب النهاية الحزينة لرحلة عامرة بالحير والعطاء والحب والصفاء ، والتي كان حصاها المكتوب وحده : مائتين وثلاثين مؤلفا في الطب . والفلسفة ، وعلوم الدين ، والفلك ، والفيزياء ، والرياضيات ، والكيمياء والشعر ، والغناء .

يقضي السنوات الأخيرة في فقر شديد ، بعد أن قدم للناس كل ما كان يملك من ثراء الدنيا وذهبها الذاهب . ووجد الحاقدون عليه والحاسدون من زملائه -- وكل ذى نعمة محسود -- فرصة مواتية للإيقاع به وافتراء التهم عليه . وما أيسر ما كان عليهم أن يفعلوا ، فهو المشهور بحرية الفكر ، وحرية الرأي ، وحرية الحكم على الأشخاص والأحداث والأمور ، غير منافق ولا مراءٍ ولا إمعة . فدرسوا له بالوشاية والافتراء ظملا وعدوانا إلى أن « تغير خاطر » الخليفة نوحه ، وتلك كانت كارثة لا راد لها ولا مدافع . فحرم من كل مناصبه وأبعد عن بغداد إلى مدينته الصغيرة « الري » ، وقد أصبح كهلا فقيرا معدما ، وحيل بينه وبين الناس . وما أكثر تحول الناس وانصرافهم خوفا ورهبا . . لم يجد من يأويه ويعني به ، سوى شقيقته الصغرى خديجة ، حملته إلى بيتها ، ودموع غزيرة تناسب من عينيها . . لا تبك يا أختاه ! دموعك حسرة على الوفاء

يا ترى أم ندم على ما كان من فعل الخير؟ ! كفكني دمعك واشتكني إلى ربك !

أما هو ، فقد راح يشكو ألماً مبرحاً في عييه . لقد حمّله فسراً حاكم خراسان الطاغية « المنصور بن إسحق » على إجراء تجارب كيميائية معينة أمامه ، كانت الأخيرة في حياته أداها الرازي - وهو شيخ عموز - بنجاح ، لكنها أفقدته البصر .

وجاءوه بطبيب ليجرى جراحه لعلها تنفذ بقية من أمل في عيني الرجل الذي طالما أحيا الأمل في نفوس الملايين وأنقذ حياتهم ، سأله الرازي : كم عدد طبقات أنسجة العين ؟ فاضطرب الطبيب ولم يجب . فصرخ الرازي في حسرة اليأس : إن من يجهل الجواب على هذا السؤال ، أخرى به ألا يمكك بآله يعث بها في عيني . دعوى لقدري . فقد شاهدت الكثير من هذا العالم ، ولا أريد لعيني أن ترى منه المزيد ! وفي عام ٣٧٠ هـ - ٩٨٠ م . يرحل الرازي العظيم عن دنيا الناس ، في صمت وهدوء كما دخلها وتعثّر « خديجة » بين مخلفاته من الكتب والمخطوطات على كومة من الرسائل والأوراق ، حاولت أن تتبين ما فيها ، لكنها لم تجد إلا وصفاً كتبه أخوها الراحل لحالات مرضية عرضت له ، وععبت من إسهابه الشديد في تسجيل كلام كثير دار بينه وبين مرضاه وتلاميذه . فآلقت بكومة الأوراق بلا اكتراث في صندوق قديم عندها ، ظل منسياً مهملاً لسنوات ، إلى أن جاءها يوماً ابن العميد وزير

السلطان ، وعلم بأمر الصندوق فاستراه منها دراهم معدودات ولعلها ظنت بالرجل خبالا إذ يدفع تمنا لتلك الأوراق البالية !

جمع ابن العميد نخبة من الأطباء وتلاميذ الرازي ، وطلب منهم أن ينتقوا من هذه الأوراق ما يصلح لجمع مادة كتاب لتدريس وقراءة فنون الطب . فكان أن ظهر إلى الوجود كتاب « الحاوي » في ثلاثين جزءا ، أو قل : هو موسوعة في علم الطب ، جمعت كل المعارف التي أفرزها العقل البشري منذ أيام أبو فراط حتى وفاة الرازي العربي العظيم !

قبل سماية عام ، كانت كلية الطب في باريس مملكت أصغر مكتبة علمية في العالم . إذ لم يكن فيها سوى كتاب واحد في الطب ، ظل المرجع للأساتذة والطلاب زهاء أربعة قرون ، ألا وهو كتاب « الحاوي » ، يحمل اسم مؤلفه : « أبو بكر محمد بن زكريا الرازي » . وبلغ من قيمة هذا السفر الفريد ، أن لويس الحادي عشر ملك فرنسا ، دفع ما يقرب من وزن الكتاب ذهباً وفضة ، لكي يتمكن أطباؤه من نسخه ثم إعادته إلى المكتبة ، فيصبح بين أيديهم مرجع يوثق به ، إذا ما ألمّ بالملك أو بأحد من أسرته ضعف أو سقم !

” ” ”

رحم الله من مضى . .

وأصلح الله من بقى !

وأعثر الله الراشدين على ميراث لا ينفد .

ميراث الفقراء ! !

الكتاب القادم

العمارة والبيئة

م . حسن فتحي

١٩٧٨/٢٩٥٣	رقم الإيداع
ISBN ٩٧٧-٢٤٧-٢٧٦-٧	التقييم الدولي

٧٨/٦٨ ق

طبع بمطابع دار المعارف (ح.م.ع.)

هذا الكتاب

خلق الإنسان ضعيفاً . . ومن هنا قد يطمح
الإنسان إلى القوة ، أو هو يرهبا ، أو يحترمها . .
ومن هنا أيضا يتفاضل الناس ويتمايزون . .
والفقراء من الناس . . فقراء اليد . . وليسوا
فقراء الفكر بالتبعية ، بل إن ميراثهم يمثل الثراء
الذي امتد إلينا قوياً خالداً . .
وهذه جولة شائقة في ميراثهم العظيم الذي
ينعكس يوما عن يوم على حضارة العرب والعالم
أيضا . .

١ / ١٨٧٠٥

١٩٠٠